

رِوَايَة

الْأَمَلُ الدَّفِينُ

وَرُبَّ ظَلَامٍ دَامَسَ يَغْقَبُهُ نُورٌ
خَفِيٌّ

بِقَلَمِ:

مَرْيَمُ مُحَمَّدُ الْمُخْتَارُ

إهداء

إلى زميلاتي العزيزات،

اللاتي أشعلن في قلبي نار الشغف، وكنّ شرارة البداية.

ربما لستُ جديرة بأن أكون مؤلّفة،

لكنني أرجو أن يكفي الشغف ليغفر ما قد يحتويه هذا العمل
من هنّات.

أقدّم لكم روايتي الأولى، ممزوجةً بين الحقيقة والخيال،
آملةً أن تلامس قلوبكم كما لامست قلبي .

" وراء كل ظلامٍ دامس، نورٌ خفيّ "

"كل درٍ يختاره الله لنا، يحمل في طيّاته حكمة"

"صدّقوا دائماً أن لطف الله أعظم من تصوّركم"

أتمنى أن تكون حياة "فهد" مواساةً لكل حزين،
وبشارةً لكل من ينتظر الفرج وسط العتمة.

والآن... لننطلق معًا، ونغوص في أعماق *الأمل الدفين*.

في زمنٍ شاعت فيه التفرقة بسبب النسب، وازدهر فيه
تفضيل أولي الحسب، لم يكن للعدل معنى إلا عند الضعفاء،
إذ كان يُقتل المرء بحجة نشر العدالة. ولكل جريمة، في
نظرهم، عقابٌ واحد: القتل. بل إن مفهوم الجريمة نفسه كان
مشوّهاً؛ فرفع الصوت، أو التجرؤ بالنظر، أو حتى الحلم
والطموح، كلّها كانت تُعدّ جرائم. وكأنهم يتخلّصون من
الأبرياء ببطءٍ ممنهج...

لكن، وسط هذا الظلام، كان بينهم شخصٌ يختلف عنهم
تماماً؛ يرى الأمور بعينٍ أخرى، ويؤمن بإمكانية التغيير.
قرر أن يبدأ ثورته من الداخل، بحكمةٍ وفطنة، دون أن يشعل
فتيل الحرب بين أولي النسب وغيرهم.

إلا أن طريق الإصلاح لا يكون بلا ثمن. فقد كانت العائلة الحاكمة حينها هي "آل فاضل"؛ أسرةً اشتهرت بالنسب العريق وقوّتها وهيمنتها، وكانت تفرض أحكامها على سائر البلاد. زعمت أن الله جل في علاه قد فضّلها على بقية خلقه، وروّجت لهذا الادعاء حتى أقنعت الشعب بأنه أدنى منها منزلة، فبسطت سيطرتها الكاملة عليه انطلاقاً من هذا الزيف.

وفي ظلّ هذه الفتن، عانت بلاد "النمسان" من صراعاتٍ تافهة، كانت كفيلة بأن تجرّهم إلى الاقتتال وسفك الدماء.

و انتشرت السرقة، والكذب، وخيانة العهد، إذ لم تكن لهم مبادئ واضحة يتبعونها، فكان ذلك فرصة لأسرة آل فاضل لتحقيق غايتهم، وهي السيطرة على البلاد بشكل جذري، والوصول إلى ما في يد الشعب من نفوذ. فقرّروا أن ينشروا في البلاد فكرة أنهم مبعوثون من عند الله - تبارك وتعالى - لتحسين أحوال هذه البلدة وتطويرها، وجعلها أفضل مما كانت عليه.

وبالفعل، حققوا مبتغاهم، واستطاعوا الوصول إلى غايتهم، ونجحت خطتهم، إذ اقتنعت عامة الشعب بادعائهم، وأيدت فكرتهم.

لكن لأسرة آل فاضل كانت هناك شروط، و أقنعوا الشعب أنه بأمسّ الحاجة إليها، ومجبر على قبولها وتلبية مطالبهم.

اشتراطت الأسرة أن يكون لها قصر، ومال، وجاه في البلدة، كما اشتراطت أن يكون لها ولي عهد، أي أن يُمنح لها الحكم الورااثي.

فوافقت البلدة على شروط آل فاضل، وكان لهم ما أرادوا:
قصر، ومال، وجاه، لكنهم لم يَفُوا بما عاهدوا عليه، بل
تصرفوا على العكس تماماً...

بدلاً من أن تقضي على الفتنة داخل البلاد، نشرت في قلوبهم
الخوف والرعب، وقتلت الآلاف منهم بحجة نشر العدل،
وأظهرت نواياها.

كانت غاية الملك هشام والملكة سناء هي القضاء على جميع سكان البلدة والاستيلاء على أموالهم.

مرّت الأيام واشتدّ الأذى على عامة الشعب، أما أسرة آل فاضل فكانت تستعد بحماس لاستقبال وليّ عهدها، وجهزت لقدمه بصرف أموال هائلة من حقوق الشعب، وبالفعل...

وبالفعل وُلد وليّ العهد بسلام، وفرحةٌ عظيمةٌ غمرت أبويه.

اتفق الملك هشام والملكة سناء على تسمية ابنهم "وليّ"، الذي قررا أنه سيكون وارثاً لممتلكات البلدة بأسرها، فاختروا له الاسم نسبةً إلى "وليّ العهد".

لكنهم لم يكونوا على دراية بأن ابنهم لن يسلك الطريق الذي رسموه له.

كانت أسرة آل فاضل تضع كل آمالها في ابنها، وتعتقد أنه سيخلّد اسمها، ويُكمل ما تبقى من العمل بعد وفاتهما، لكن كان للقدر رأيٌ آخر...

كان للقدر رأيٌ آخر، غرس الله في قلب ابنهم الرحمة والرافة.

لم يكن "وليّ" مهتمًا بالامتلاكات ولا بالمناصب، ولم تكن لديه رغبة في الوقوف إلى جانب أبويه حتى.

كان يشمئز من تصرفاتهم مع الشعب، ومن سلبهم لأموال الناس، بل كان يحتقرهم لمخالفتهم طريقته في التفكير.

تأسف لكونهم أبويه، وقرّر أن يُخلّص الشعب من قبضتهم وظلمهم، لكن ذلك لم يكن بالأمر السهل، كان عليه أن يُفكر جيدًا قبل اتخاذ أي قرار متسرّع. لم يكن "وليّ" متسرّعًا في قراراته، لذلك لم يُظهر لأهله أنه لا يتفق معهم، لكنه مع ذلك استمر في محاولة إقناعهم بالكفّ عن الظلم والتعدي على حقوق الناس، لكن بدون جدوى.

ظلوا مصرّين على رأيهم، فكان "وليّ" يحاول على الأقل مساعدة الشعب في الخفاء، مدركًا أن الشعب لن يثق به، لذلك قرّر أن يتنكر ويعيش بينهم متخفيًا ليساعدهم.

كان الحُرّاس في قصر آل فاضل يدفعون المال مقابل عملهم
للملك والملكة، بدلًا من أن يتقاضوا أجر تعبهم ...

فقد كان العمل في قصر آل فاضل شرفًا لا يناله الجميع،
فيكتفي الخدم بأن يُقدّم لهم الأكل والشرب، أو بمعنى أدق:
الحياة، مقابل أموالهم.

وكان من بين الحرس رجل يُدعى "رأفت"، صديقٌ لوليّ منذ
صغره، بالإضافة إلى كونه حارسًا له، وكان دائمًا يقدّم له
المساعدة ليتمكن من الخروج من القصر دون علم أهله.

كما كان هو الآخر يُساعده في تخبئة عائلته، للنجاة من ظلم
هشام وسناء، لأنهما كانا...

لأنهما كانا يُحرّمان الولادة في البلدة خشية تكاثر الشعب،
فكانا يُقدّمان لكل زوج خيارين لا ثالث لهما: إما أن يتخلصوا
من الجنين في بداية الحمل، أو يُقتل الزوج والجنين معًا
بوحشية.

لذا كان الخيار الأنسب لكل زوج هو التخلص من الجنين قبل
أن يتسبّب في خراب بيته.

لكن صديق ولي، "رافت"، وبفضل صلته الوثيقة بولي
العهد، تمكنت زوجته "شمس" من إنجاب طفلة تبلغ من
العمر قرابة الخمس سنوات، وسمّتها "أمل"، لتكون أملاً لهما
في حياة أفضل، هي وشمس نفسها...

كان لرأفت عائلة صغيرة وجميلة، تكون لكل من هو ووليّ عالمة الخاص، وسعادته البسيطة، ومأواه.

زوجة رأفت، شمس، وابنته "أمل"، وابنه الذي لم يولد بعد، والذي كان ينوي أن يُسمّيه على اسم صديقه المقرب والعزيز: "وليّ".

كانت شمس في شهرها التاسع من الحمل، وتجهّز بفرحة مع زوجها لاستقبال ابنهما، وكان "وليّ" يساعدهم قدر المستطاع لإبقاء الأمر سرّاً، كي لا يصل الخبر إلى أهله. لكن للأسف، لم يكن حبل كذبهم طويلاً بما يكفي، حتى يُولد الطفل بسلام على الأقل...

فقد كُشف أمرهم قبل أن يرى "وليّ الصغير" النور، ليكون ذلك نهاية مأساتهم، وبداية... وبداية حياة أخرى لوليّ، كان رأفت يخطط لحفل صغير مع عائلته الصغيرة، وأصرّ على وليّ أن يحضر الحفل.

لكن أثناء تخطيطهم معًا، كانت تتجسس على حديثهم إحدى الجوارى التي وكلتها أمه بالتجسس على وليّ. فأخبرت سناء بكل ما سمعت.

حينها قررت سناء ألا تخبر هشام بأن وليّ له علاقة بالأمير، بل أخبرته فقط عن أمل وحمل شمس.

فقرر هشام حينها أن يجعل من رأفت عبرة لكل سكان البلدة، حتى لا يتجرأ أحد منهم، ولا حتى يفكر مجرد التفكير في تقليده، وقرر معاقبته فورًا.

لكن... سناء كانت على دراية بأن حفل استقبال مولود رأفت سيكون يوم غد، فأقنعت هشام أن يؤجل تنفيذ الحكم على الأقل حتى يتم تنصيب ابنهم وليّ كولي عهد، ومن ثم سينفذ الحكم هو بنفسه، ليكون ذلك زرعًا للخوف في قلوب البلدة من ابنهم كولي العهد الذي يليق بأهله.

لكن هذا لم يكن السبب الحقيقي الذي دفع سناء لإقناع هشام، بل كانت تخطط لإقناع وليّ بأن يبتعد عن رافت وأمثاله، ويتخلى عن مساعدة الشعب، ويكف عن ذلك ليتفرّغ لمنصب ولي العهد.

وأخبرته، خادعة له، بأنها لن تخبر هشام بأي مما عرفته عن عائلة رافت، وستبقي الأمر سرّاً، مقابل أن يتخلى عن كل تلك...

...مقابل أن يتخلى عن كل تلك المساعدات التي كان يقدمها
للشعب سرًا، لكن وليّ رفض عرضها، ثم نطق قائلاً
بانفعال:

"حتى لو عفى أبي عن عائلة رأفت، لن يرحم باقي العيال،
وستظل حقوق الشعب عالقة في رقبتة، ولن يدعه يعيش
بسلام مدى الحياة

ثم طلب من أمه أن تُقنع أباه بأن يعيد كل الممتلكات
لأصحابها، ويسافر معهم بعيدًا عن شعب بلاد النمسان
وحقوقه، "لنعيش جميعًا حياة بسيطة خالية من الظلم وتأنيب
الضمير."

كان وليّ حينها يكلم أمه، واضحًا عليه أنه...

...واضحًا عليه أنه يتكلم عن تأنيب الضمير من أعماق قلبه،
لأنه يشعر بكل دمة سالت من عين كل مظلوم في تلك
البلدة، وكان السبب فيها – للأسف – أهله من دمه ولحمه.

في هذه اللحظة، أدركت سناء مدى بُعد ولي عن طريقة
تفكيرها هي وأبيه، لذلك قررت أن تخطط لجعله ينصاع لهما
غضبًا عنه، ويكون كما أراده والداه أن يكون.

وأثناء تفكيرها، أكمل ولي تهديده لأمه قائلاً:

"إما أن تُقنعي أبي بما قلته، أو ستشهدين صراعًا بين زوجك
وابنك..."

...فردّت عليه سناء بدموع زائفة قائلة:

"بُني، يستحيل إقناع أبيك بما أقنعتني به..."

ثم لاحظت غضب ابنها فأكملت:

"...إلا بطريقة واحدة."

هنا اتسعت عينا ولي، ثم نطق بحماس:

"كيف؟"

فردّت عليه سناء :

"سأذهب أنا وأنت معًا لمقابلة رأفت وعائلته غدًا، ومن ثمّ سنسافر معًا حيثما شئت. لكننا سنترك لأبيك رسالة نُخبره فيها بأنه عليه أن يختار:

إما أن يتخلى عن المال والجاه ويسافر معنا،

أو أن يبقى في قصره مع ماله وجاهه... وحيدًا، دون زوجة أو حتى ابن.

وأنا متأكدة أن أباك لن يختار القصر على أن يخسرنا نحن... فنحن، في النهاية، عائلته."

لكن ولي لم يقتنع...

لم يكن ولي مقتنعا بكلام سناء، لكن وإن لم يتمكن من تصديقها، إلا أن بصيص أملٍ انبعث بداخله، فقال:

«لعلك تصلين إلى مرادك وتُنقذين أبويك من الحقوق المعلقة في رقابهما».

فقرر أن يُعطي لأمه فرصة، ووافق على كلامها، بشرط أن يكون رافت وعائلته معهم أينما ذهبوا، فلا يمكنه العيش بدونه البتة.

كانت سناء حينها تُفكّر بخبث، وترسم في مخيلتها مخططاً بعيداً كل البعد عما تنطق به شفاهها، لكنها وافقت على شرط ولي.

فاتفقا سوياً على أن ينتظرا هاشم عند حدود النمسان، مع رافت وعائلته بطبيعة الحال، ثم ينطلقوا فجرًا في رحلتهم.

ثم أكملت قائلة:

«اخلد أنت إلى النوم قليلاً بينما أكتب أنا الرسالة لأبيك، وسنلتقي به فجرًا خلف القصر إن شاء الله».

لكنها لم تفِ بوعدھا لولي، ولم تكتب في الرسالة ما قالت له
إنھا ستكتبه، بل كتبت له فيها أن ابنهم متورط في قصة عائلة
رأفت،

وأنه يُفسد كل ما فعلاه بمساعدته للشعب متخفياً بينهم،
وأنه عليه أن يُعيده إلى رشده قبل أن تخرج الأمور عن
السيطرة.

ثم واعدته بأن يلتقيا في مخبأ عائلة رأفت — أي العنوان
الذي سبق أن أخبرته به —

ويجلب معه مجموعة من الحرس لتنفيذ الحكم وقتل عائلة
رأفت أمام عيني ولي،

ثم سجنه بعد ذلك بعيداً عنه، وأن يُعيد ولي إلى القصر غصباً
عنه،

ويُجبره على تنفيذ أوامره عن طريق تهديده ...

يهدده بقتل صديقه رافت ويلحقه بعائلته، وطبعياً لن يصبر
ولي حينها على كل هذا الإكراه مقابل حياة أعز أصدقائه،

سيقتنع أنه لا مفر من مصيره ويعود لرشده. وإن لم يقبل
المشي على طريقنا، فعليك أن تقتله قبل أن يكون سبباً في
خسارتنا لكل هذه الأموال، لا حاجة لنا في ابن يخطط ليفسد
ما كسبناه من مال. وضعت الرسالة عند رأس سرير هاشم،
والتقت مع ولي خلف القصر كما تواعدا، ومن ثم ذهباً معاً
لللقاء رافت وعائلته. انصدم رافت فور وصولهم برؤية...

انصدم رأفت برؤية الملكة سناء بجلال قدرها في مخبئه،
وخاف على عائلته من قدومها، فعمّ الرعب المكان، وانتقلت
نظرات الاستتجاد باتجاه ولي.

فابتسم لهم بوجه يدعو للاطمئنان، قائلاً إن لا داعي للخوف.

أخبر صديقه وزوجته بكل ما دار بينه وبين أمه، وأنهم لن
يحتاجوا إلى اللجوء للاختباء بعد الآن، وأن حياة أفضل
بانتظارهم بإذن الله.

لكن أمل لم تكف عن البكاء خوفاً من الملكة الشريرة، التي
لطالما زرع أهلها في قلبها الخوف منها، ووصفوها لها
بصورة وحشية،

بينما ازداد بكاء أمل من قلق أمها...

أما شمس، فأخذت تضم ابنتها إلى صدرها، وكأنها تقول:
"لن أسمح لأي مخلوق أن يؤذي ابنتي، ولو على جثتي". وقد
تسبب القلق والتوتر اللذان عاشتهما في بدء آلام المخاض
مبكراً. وعندما لاحظت رافت سوء حالتها، اندفع نحوها
مسرعاً، لكن هاشم، بإشارة واحدة من إصبعه، أمر رجاله
فاعترضوا طريق رافت وتمكنوا منه.

أما ولي، فقد وُضع داخل القفص الملكي حتى لا يُظهر
معارضته لأبويه، وفي الوقت نفسه يُجبر على مشاهدة كل ما
سيحدث بعينه العاجزتين. وقد حرص الرجال الذين أمسكوا
برافت على أن تبقى عيناه مفتوحتين ليرى كل لحظة من
مأساة عائلته، رغم بشاعة المشهد ووحشيته.

أخذ أحد الرجال "أمل" من بين ذراعي أمها، دون أن يعبأ
بصراخها أو دموعها وحرقتها، بينما قام آخر بجرح شمس
وسط صرخاتها التي ملأت المكان، ثم ألقاها أرضاً على
ظهرها. كانت يداها مقيدتين بالسلاسل، وكذلك رجلاها،
فاستلقت وجعلت بطنها مكشوفاً، ورغم سوء حالتها وشدة
آلامها، بقيت تصرخ بألم: "أمل! رافت! ابني!"، وكان
صوتها يتقطع من شدة البكاء...

وُضع رأس "أمل" في مقصلة الإعدام، وجُعل وجهها
المستنجد مقابل أهلها العاجزين. كان ذلك المشهد طعنةً في
قلب كل من يمتلك قلبًا، لكن للأسف، أغلب الحاضرين كانوا
خاليين من الرحمة. رأى رأفت وشمس بأعينهم تجهيز ابنتهم
الصغيرة للقتل، وكانا يشاهدان أسوأ ما يمكن أن يمر به قلبان
بشريان.

وفيما قلوبهم تتمزق، وقف الملك والملكة مرفوعي الرأس، لا
أثر للشفقة على ملامحهما. وما إن أشار هاشم، حتى نُفذ
الحكم، وقُطع رأس أمل. ساد المكان صراخ وبكاء وأنين،
وما إن خمدت الأصوات، حتى صُدر الحكم التالي: طعن
شمس في بطنها، وقتل الجنين الذي لم يولد بعد.

طلب هاشم من نفس الرجل الذي قتل أمل أن يكمل مهمته...
وقال له: "خذ حربة واغرسها وسط بطن تلك السافلة، حتى
تكون عبرة لكل من نظر." لكن الرجل كان له قلب صحي
بعد غفوة تسببت بكل ما حدث آنفاً، ولم يطاوعه ذلك القلب
بعد استيقاظه، فبالكاد استطاع قطع رأس تلك الطفلة التي
تستجد بأبيها وتتوسل إليه أن يتركها تذهب لمساعدتهم.
منعته تأنيب ضميره من قتل أمها وأخيها الذي لم يُولد بعد،
فأعرض عن حكم الملك رافضاً فعل أي شيء يشابه هذا أبداً.
فأمر الملك على الفور بقتله شنقاً حتى الموت، حتى لا يكون
في قطع رأسه راحة له، واستدعى رجلاً آخر قاسي القلب
وفارغ الأحاسيس، إن كان له قلب أو مشاعر، وطلب منه
إكمال ما أبقاه الآخر ناقصاً...

تأهب الرجل لقتل المرأة الحامل طعنًا في بطنها التي تحمل
روحًا بريئة لم ترَ الدنيا بعد. وقبل أن يفيق رأفت من صدمة
مقتل ابنته، قُتلت زوجته الحامل بابنه، الذي كان يفكر يومًا
في تسميته على اسم صديقه، ذلك الصديق الذي لم يعد يحمل
في قلبه إلا الحقد والكراهية.

ظن أن كل ما عاشه من مأساة كان بسبب ولي، وحملّه
مسؤولية خسارته لعائلته بهذه الوحشية، معتقدًا أن وليًا قد
اتفق مسبقًا مع أبويه قبل أن يحدث ما حدث.

بعد توالي الصدمات، دخل في حالة تشبه الحد الأقصى من
الألم، أي اللا ألم

كانت المشاهد تتكرر أمام عينيه... قدوم ولي، وسناء،
ومن معهم من رجال وشعب... مقتل أمل... وطعن شمس
بعد أن عاشت ألم فقدانها لابنتها... وقتل الجنين معها...

كان كأنه يعيش كل مشهد بتفاصيله من جديد، لكنه لم
يصرخ، لم يبكي، لم يُظهر أي تعبير.

فقط بقي واقفاً، جامداً في مكانه، لا يستوعب ما حدث، إلا أن
هوس انتقامه من أسرة آل فاضل ظل يقظاً في قلبه منذ ذلك
الحين.

أما عن ولي، فقد اندهش كل الاندهاش مما فعله أهله، فعلى الرغم من أنه لم يضع حدًا لتوقعاته السوداوية تجاههم، إلا أن ما فعلوه اليوم فاق حتى حدود خياله.

تحطم حزنًا على ما حلّ بعائلة صديقه، أو عائلته هو، بمعنى أدق.

ظل يطيل النظر في عيني رأفت، محاولاً مواساته، وإقناعه بأنه لا علاقة له بما حدث، وأنه لم يكن على علم بأي شيء مسبقًا.

انتقلت النظرات بينهما؛ نظرات الألم، والحزن، والشك، والخذلان...

أمر هاشم بسجن رافت، وحاولت سناء الحديث مع ابنها، لكنه لم يكن في حالة تسمح له باستيعاب أي شيء.

لاحظت أمه ذلك، فطلبت من هاشم أن يتركه قليلاً حتى يهدأ ويعود إلى رشده لاحقاً.

عاد الجميع إلى القصر، لكن بعد أن زرعوا الرعب في قلوب الجميع.

كان ذلك اليوم كـ"يوم القيامة" في نظرهم، يوماً بشعاً، سَلَم فيه الناس أمرهم لأسرة آل فاضل، رغم حقدهم عليهم. وُضع رافت في السجن، وأدخل ولي إلى غرفته.

قالت له سناء إنها فعلت كل ما فعلته من أجل مصلحته، وإن أباه يخيره بين أن يكون الابن المطيع لأسرته، أو أن يُقتل ويُلقق برافت، ليجتمع مع عائلته سوياً.

ظل ولي ينصت لما تقوله بصمت يصعب تفسيره.

واصلت حديثها ثم ختمت بقولها:

"اتخذ قرارك، وعندما تصبح جاهزاً أو تشعر بأنك متأكد من اختيارك، كلمني أنا وأباك.

بني... الحياة خيارات وقرارات."

ثم خرجت من الغرفة، وتركته بمفرده ليفكر في قراره
بإمعان...

كان رأفت في السجن يناجي ربه، يستنجد به أن يأخذ له حقه
ممن ظلمه، ويدعوه أن يُريه عجائب قدرته فيهم. عاهد نفسه
على الصبر، بعدما أخذت نيران غضبه بنور إيمانه، فقد
قرر أن يوكل أمره لله، فهو حسبه ونعم الوكيل. ولعله
سبحانه اختار لهم مصيرًا أشد مما قد يُمكن أن يصنعه هو
بيديه، ينتقم به، ويُشفى به غليله.

أما ولي، فكان لا يزال في غرفته، حائرًا بين الخيارات،
عاجزًا عن اتخاذ قرار حاسم. لكنه كان على يقين بأمر
واحد: أنه يستحيل أن يصمت عن حق صديقه، وسُيعيد له
العدل، ولو كلفه ذلك حياته. كان يعلم تمامًا أنه لو صرّح
لأبيه برغبته في التخلي عن ولاية العهد، فلن يتردد في تنفيذ
تهديده وقتل رأفت، وربما يلحقه به، لتطوى صفحة العدالة
نهائيًا، ويبقى ظلم الشعب ممتدًا بعد رحيلهما.

لهذا، قرر ولي أن يبحث عن طريقٍ ثالث، حلّ وسط لا يضيع فيه حق رأفت، ولا يسمح فيه باستمرار الظلم، ولا يُعطي أبويه الفرصة لتكرار ما فعلوه.

**

قرر أن يقتص من أهله، ويُريح العالم من شرهم، لكن عليه أن يجد الطريقة المثلى لفعل ذلك، فالخلاص منهم لن يكون بهذه السهولة. قرر أن يُجاريهم بطريقتهم، ويُظهر لهم الوجه الذي يريدون رؤيته، يخدعهم كما خدعوه، ويرد إليهم الصاع صاعين.

وحين استقر قراره، خرج من غرفته، وقابل والديه، وأخبرهما أنه مستعد لتلبية كل ما يُطلب منه. أقنعهما أنه سيبتعد نهائيًا عن نصرة الشعب، وسيكون كما أراداه دومًا: ولي عهد يُخلد اسميهما، ويحفظ ثروتهما، ويُكرّس سلطتهما، ويمدّ في ظلمهما إلى أن تتلقاهما المنية.

بدت كلماته صادقة حدّ الإقناع، فقد بدا وكأن معارضته لهما انتهت... لكنه، في قرارة نفسه، كان قد بدأ أول خطوة في طريق الانتقام.

فبعد أن رأى قوة أبويه، أدرك أنه عاجز عن التصدي لهما، وأنه لم يكن يُفكر بشكلٍ صحيح من قبل. بدأ يسرد عليهما عبارات المديح، منصاعاً لهما، وكان الشخص الذي يتحدث الآن لم يعارضهما قطّ من قبل. كل ما كان يريده هو كسب ثقتهم من جديد من خلال ذلك الكلام.

وبالفعل، نجح في الوصول إلى مبتغاه باحتراف، فردّا عليه باقتناع قائلين:

"لن تندم على هذا القرار، كان عليك أن تتخذ منذ زمن طويلاً. نحن سعيدان بعودتك إلى رشدك، وفخوران بك كل الفخر."

أخذاً يُثنيان عليه، ويُشيدان به وبقراره. لقد اقتنعا بكلماته، ونجحت خطته.

لكن تفكيره كان يسير عكسهما تماماً...

فكل ما كان يشغل باله هو: *كيف سينهيهما*.

أما رأفت، فقد اقتنع أن أعظم انتقام يمكن أن يناله منهم هو أن يترك أمرهم لله، حتى يُنزل عدله عليهم ويقتص له منهم.

مرت الأيام، وبدأ ولي يقضي على أتباع أهله واحدًا تلو الآخر، مستبدلاً إياهم بأشخاص يعلم يقيناً أنهم مجرد مجبرين على تنفيذ الأوامر، لا موتى القلوب كمن سبقوهم، وسيزول هذا الإجبار بمجرد تخلصه من سناء وهاشم.

وذات يوم، تحدّث إلى والديه قائلاً إن لديه فكرة رائعة ستجعل حكمهم يتسع ليشمل مناطق خارج النمسا، مما يمنحهم فرصة للسيطرة على أراضٍ جديدة والاستفادة منها. طلب منهما أن يرافقاه لإلقاء نظرة على الأرض التي قال إنها ستصبح ملكاً لهم قريباً.

فقد كانت طمعهم هي الوسيلة الوحيدة التي يمكن استغلالها للإيقاع بهما.

ووفقا بحماس، وذهبا معه إلى مكان مهجور، أقرب ما يكون إلى غابة كثيفة، وكان برفقتهم عدد من الحرس بطبيعة الحال، حتى لا يثير غيابهم الشكوك.

وعندما وصلوا إلى النقطة التي أرادها، أشار إلى الحرس الذين سبق أن اتفق معهم سرًا، أن يتركوه مع والديه على انفراد، فنفذوا أوامره فورًا دون تردد.

استغرب أبواه مما فعله، لكنهما كانا على يقين بأن ابنهما يستحيل أن يؤذيها. ومع ذلك، طالباه بترك الحرس في الجوار، فقد يتعرضون للخطر في مثل هذه الأماكن.

تردد قليلاً، ثم قرر أن يجعل أولئك الحرس شهوداً على نهاية طال انتظارها... نهاية يشفي بها صدور المظلومين.

ثم قال لهما: "تعاليا، سأريكما الجزء الأهم من الأرض...".

الجملة جيدة من حيث المعنى، لكنها بحاجة لتنسيق وصياغة لغوية أوضح. إليك نسخة مصححة ومحسنة:

وبينما كانوا يتمشون، كان يلهيهم بالحديث عن تفاصيل المنطقة وكيفية السيطرة عليها، وما هي إلا لحظات حتى سقط كلُّ منهما في فخه، وعلق في الشبكة التي أعدّها لهما مسبقاً.

فور وقوعهم، بدأوا في طلب المساعدة منه، غير مدركين أنه هو من نصب لهم ذلك الكمين للتخلص منهم. فقد كان قد جهز كل شيء مسبقاً بدقة لقتلهم. وبعد لحظات من الذهول والاستغراب، بدأت تتضح لهم الصورة، وبدأت مرحلة التنفيذ.

قيدهم بالحبال، وأغلق أفواههم بمساعدة الحراس، وسط نظراتهم المليئة بالدهشة وعدم الفهم. أخذ كومة من الذهب، وجهز منها وزنتين ثقيلتين، ثم ربط كل واحدة برأس حبل من الحبلين اللذين أعدهما، أحدهما لأمه والآخر لأبيه.

وضع الحبلين فوق الشجرة، بحيث يكون الذهب في أحد طرفيهما، ليعمل كوزن ثقيل يسحب الجسد للأسفل عند إفلاته، فيشنقه فوراً. ثم نطق بصوت حاد:

"قلت لكم من قبل إن حقوق الشعب لن تترككم تعيشون بسلام، وستكون نهايتكم على أيديها. دعوا الذهب الآن ينقذكم من الموت!"

ثم ابتسم ببرود، وأكمل:

"إن استطاع طبعاً..."

وبلا تردد، أفلت يديه عن أكياس الذهب، فسقطت لتشنق والديه، دون أن يرف له جفن. دفنهما في الأرض المهجورة بمساعدة الحراس، الذين اعتبروا مشاركتهم "شرفاً" في ذلك اليوم. ثم عاد ليعلن نبأ وفاتهما، وتوليه الحكم من بعدهما.

*انتشرت الأخبار في أرجاء البلاد، ولم يبق أحد إلا وعلم بموت الملك هاشم والملكة سناء، إلا رأفت، فقد قرر ولي تأجيل إخباره ليشرح له لاحقاً ما حدث وسوء الفهم السابق.

وفي خطوة حاسمة، أعلن أن جميع الممتلكات التي كانت منذ البداية ملكاً لشعب النمسان يجب أن تُعاد لأصحابها، وأنه لا قصر بعد اليوم، ولا مملكة.

**وقف في ساحة عامة، يخاطب الجميع قائلاً:

"لقد مات هاشم وسناء، ومات معهم ظلمهم. لن أكون أداة لتخليدهم كما اعتقد البعض. أنا الآن فرد من هذا الشعب، لا ميزة لي عليكم."**

ثم تنهد، وقال:

"ولكن بعد أن نلنا حريتنا، لديّ ما أقوله لكم..."

... هو الآن واحدٌ منهم، لا أكثر ولا أقل، ولا رغبة له في ولاية العهد أو الحكم أو أي من تلك الأمور. وينصحهم ألاّ يسمحوا لأي شخص، مهما كان، أن يستولي على حقوقهم بحجة أنه أفضل منهم، أو أنه جاء لينقذهم من الفساد.

وليدركوا أن التغيير يبدأ من داخلهم، لا من غريب يتدخل في أمرهم؛ فلا يمكن لأيّ كان أن يُصلحهم ما لم يساهموا هم أولاً في إصلاح أنفسهم. وليكونوا على يقين بأن الله لا يفضل عبداً على آخر بسبب نسبه، إنما يزنهم بما في قلوبهم.

وإياهم ثم إياهم أن يقعوا في نفس الخطأ مرة أخرى، ف"لا يُلدغ المؤمن من جحره مرتين". ويتمنى أن تكون حياتهم الجديدة كفيلة بأن تنسيهم ما حلّ بهم في الماضي.

حينها... انقسم الشعب إلى صنفين:

صنف اتحد مع "ولي"، واقتنع بكلامه، وأحبّه، وقدّر ما فعله لأجله. اتّضحت له الرؤية بعد حديثه، فقطع على نفسه عهدًا ألا يسمح لأيّ إنسان أن يخدعه كما حدث سابقًا. أراد أن يشكر "ولي" الذي لم يحرره فقط من سجنٍ مادي، بل أطلق سراحه من أفكارٍ كانت تخيم على ذهنه... لكنه اكتفى بالدعاء له سرًّا.

وصنف آخر لم يصدق "ولي"، ولم يثق بكلامه، ولم يستوعب كيف يمكن للخير أن يولد من صلب الشر. لم يكن بمقدورهم أن يسمحوا لأي فرد من أسرة "آل فاضل" أن يبقى على قيد الحياة، حتى وإن كان هو من أنقذهم من شرور بقية أفرادها. لذلك، رأوا أنه من الضروري التخلص من "آخر" أفراد تلك الأسرة الملعونة... وقتل "ولي" سيكون، في نظرهم، الضمان الوحيد لعدم عودة الخطر في المستقبل.

ويبقى السؤال... *من أي صنف سيكون رأفت يا ترى؟*

****ذهب ولي للقاء رَأفت ليخبره بما حدث خلال فترة سجنه، حيث كان معزولاً تماماً عن الحياة، سواء خارج القصر أو داخله، لا يرى سوى خيط الفجر الأبيض يتسلل بخفوت.**

لكن للأسف، لم يصدق رَأفت كلامه، إذ لم يكن مستعداً لتكرار خطئه السابق ومنحه ثقته مجدداً.

في البداية، وجد ولي صعوبة حتى في إقناعه بأنه قتل والديه لأجله، واستمر النقاش طويلاً، واحتاجا إلى شهود وأدلة.

وفي النهاية، اقتنع رَأفت بأن ولي فعلاً قد قتل والديه انتقاماً لصديقه.

لكن، لم تعد المياه إلى مجاريها كما توقع ولي.

قال رَأفت بصوت هادئ يحمل مرارة:

"ربما لن أحقد عليك بعد الآن، وقد لا أحملك مسؤولية مقتل عائلتي، لكن في الوقت ذاته... اعذرني، لا يمكنني اعتبارك صديقاً لي بعد كل ما حدث، ولا تتوقع مني..."

* (توقّف قليلاً ثم تابع) *

* "لا تتوقع أن نعود كما كنا." *

* حاول ولي التمسك بصدافته وقال برجاء: *

* "أرجوك، ليس لي في هذه الحياة سواك، دعنا نأخذ منزلاً صغيراً في أحد زوايا هذا العالم الكبير، نعيش سوياً، وننسى كل ما مضى. أرجوك، لا تسمح للماضي بأن ينهي صداقتنا، فنحن لا نملك سواها... ألا يحزن قلبك عليّ؟" *

* ردّ عليه رافت بنبرة حاسمة ممزوجة بالغضب والألم: *

* "من المستحيل أن نعيش سوياً تحت سقف واحد... رؤيتك ستظل تذكّرني بقتل عائلتي بتلك الوحشية." ** (قال "الوحشية" بصوت غاضب ودموعه تنهمر دون أن يشعر بها، ثم أكمل بصوت متهدّج وهو يحاول التماسك):

"الصور لا تزال تتكرر أمام عيني حتى اليوم، ولكي أنسى ذلك اليوم المشؤوم... يجب ألا أراك مجددًا."

حزن ولي من كلام صديقه، لكنه تماسك وقال بهدوء:*

*"إن كان ما يريحك هو ألا تراني... فلن أدعك ترى وجهي بعد الآن. لن أسمح لنفسني بأن أكون..."

بأن أكون سببًا في ألمك، فالمحب لا يؤذي من أحب. أتمنى
أن تكون سعيدًا في حياتك من بعدي، هذا كل ما أتمناه.

عاد ولي خائبًا، بعد أن كان يحمل الكثير من الآمال حينما
كان في طريق لقائه بصديقه بعد فترة من البعد. كان يعتقد أن
كل شيء سيعود إلى طبيعته، وسيستعيد صديقه الذي اشتاق
إليه وإلى لحظتهما معًا، لكن كل ما تخيله تلاشى أمام عينيه،
فعاد مكسور القلب ومحطمًا بعد أن فارقه نصفه الآخر.

افترقا وعاش كل منهما بعيدًا عن الآخر، كلٌّ في منزله
الخاص. لكن من حسن حظ صداقتهما أن الناس بقيت جامعة
بينهما، بينما بقيت مجموعة ذلك الصنف تحمل في قلبها
الحقد على ولي لمجرد أنه ينتمي إلى آل فاضل، وخططوا
لقتله لتنتهي تلك الأسرة نهائيًا.

وكانت حادثة قتل عائلة رأفت أول ما قد يفكر فيه كل من أراد الانتقام من آل فاضل. فقررُوا الاستعانة برأفت لتحقيق مآربهم. فذهبوا إلى بيته وطلبوا منه أن يساعدهم في قتل ولي.

رفض في البداية، قائلاً: "لم أعد أريد أن يربطني بذلك الشخص عداوة حتى". لكن محاولات إقناعهم طالت، حتى أوصلته إلى قناعة بأن العدل لن يتحقق لعائلته ما دام فرد من آل فاضل على قيد الحياة.

فوافق في الأخير أن يتعاون معهم رغم عدم اقتناعه الكامل بذلك. طلبوا منه أن يرسل رسالة إلى ولي بأنه يريد مقابلته قرب الغابة، ومن المؤكد أنه سيلبي الدعوة أينما كان. وفعلاً حدث ما توقعوا..

أتى ولي ظناً منه أن رأفت سيسامحه أخيراً، لكنهم حينها قد
نصبوا له كميناً ليقع فيه منذ قدومه، ليكون ذلك سبباً في
انكساره ثانياً، ولكن هذه المرة بعيار أقوى...

خابت آماله حينها، فقد خانه أعز أصدقائه.

كانت تلك الطائفة يترأسها رجل يسمى راشد، تقدم نحو ولي
ثم قال مخاطباً:

"لن نكون أغبياء مرة أخرى ولن نترك شخصاً من آل فاصل
حرّاً طليقاً. الآن سنلحقك بأهلك، فهذا هو المكان اللائق
بكم..."

ثم رفع سيفه ناويًا قطع رأس ولي، لكن قبل أن يחדش السيف عنق ولي، نطق رافت موقفاً الرجل وقال له:

"لقد كان النصيب الأكبر من ظلمهم لي، لذلك أنا الأحق بمعاقبته. هل تسمح لي بذلك؟ دع الأمر لي، سأجهز له موتاً تليق بولي عهد آل فاضل.

لكن قبل أن نبدأ في ذلك، لدي ما أقوله له، فاتركونا بمفردنا لو سمحتم. لدي حساب علي تصفيته معه

سأل راشد:

"هل أنت متأكد أنه لن يستطيع الهرب من بين يديك؟"

فرد عليه رافت:

"أعتقد أن من جلبه إلى هنا ليس قادراً على إبقائه أمام عينيهِ؟"

اقتنع راشد فوراً بكلمات رافت وأمر مجموعه بتركهما
بمفردهما.

عندما بقيا لوحدهما، قال ولي لرأفت بخيبة أمل:
"لقد قتلت أهلي انتقامًا لعائلتك ولكل من كان في مكانهم،
وأنت..."

قبل أن يكمل كلامه، ضربه رأفت ضربة صعقته، ثم واصل
ضربه. كان ولي مصدومًا من ردة فعله وانقلاب صديقه
ضده.

ثم أوقف الضرب وقال له:
"صدقني، لو لم أضربك هذه الضربات لما استطعت
مسامحتك."

مضت لحظات وولي يحاول فهم كلمات صديقه تلك، ثم
تعانقا باشتياق وتصالحا.

بعد عناق طويل، نطق ولي قائلاً بارتياح:

"خفت أن لا تسامحني أبداً."

رد عليه رَأفت:

"أعتقد أن باستطاعتي أن أستغني عنك؟ بالطبع لا.

والآن انفذ بريشك فوراً، ففي هذا الشعب لا خير يظهر، ولا
يمحى منكر، ولن أسمح أن تكون ضحية لتخلفهم.

غادر هذا البلاد نهائياً وعش حياتك بسلام."

ضربه ولي بلطف ثم قال:

"حياة؟ وهل لدي حياة بدونك؟ غبي."

تظن أنني سأهرب وأترك صديقي بمفرده وسط هؤلاء
الوحوش؟ بالطبع لا."

رد ولي بعفوية:

"أرجوك افهمني، لدي ما أقوله لهم لعلهم يقتنعون. ما أدراك لعل كلامي يجدي معهم نفعًا."

فقال له رافت:

"صدقني، لو كان الأمل موجودًا ولو قليلاً لاقتنعوا معي. لقد فعلت ما يدعو لذلك."

دعنا نهرب سوياً كي نعيش كلانا بسلام."

دام نقاشهم للحظات وانتهى باقتناع رأفت، ثم انطلقا مع بعضهما على حصان رأفت ليتخذا حياتهما منعطفًا آخر بعيدًا عن قساوة النمسان ومشاكلها، لبدأ حياة جديدة مليئة بالفرح والأمان.

هربا سويًا دون توقف إلى أن تأكدا من أنهما أصبحا بعيدين جدًا عن حدود النمسان، ثم جلسا معًا ليفكرا فيما سيفعلانه بعد ذلك، بينما لا يملكان طعامًا ولا شرابًا ولا حتى غطاءً يتدفّيان به ليلاً خلال مدة سفرهما التي لا يعلمان إلى متى ستستمر، ولا إلى أين ستقودهما رحلتها العشوائية.

بدى أن هروبهما كان دون تخطيط، فقط انطلقا وهما يجهلان الوجهة، لكن أول خطوة اتفقا عليها هي تغيير اسميهما حتى لا تكون هناك أي فرصة للعثور عليهما. قررا أن يختار كل منهما اسمًا للآخر.

كان ولي متحمسًا لتغيير اسمه، فقد كان يذكره بأهله، فسرّ بتسمية رأفت له باسم "فهد". أما رأفت، فكان سعيدًا هو الآخر ببدء حياة جديدة مع صديقه، خاصة حينما سماه "فريد".

قرر فريد أن ينسى كل ما مر به في الماضي، وألا يحتفظ في ذاكرته سوى بأنه الآن بجانب صديقه، يواصلان معاً رحلتهم المجهولة.

رحلة لا يعرفان لها وجهة، ولا كيفية الوصول إليها. على العموم، توكلا على الله، ثم انطلقا مواصليين السير، حتى صادفتهما جماعة من المسافرين بدورهم. فاستنجدا بهم، وطلبا منهم أن يصحبوهم، لعل وجهتهما تكون واحدة.

أخبرتهم الجماعة أن وجهتها هي قرية تُدعى "سنابل"، ثم سألوها إن كانت وجهتهما هي القرية ذاتها أم لا نظر فهد وفريد إلى بعضهما نظرة أمل، وكأن تلك القرية قد تكون بداية حياتهما الجديدة، فأوماً بالموافقة.

تكوّنت الجماعة من شابين في مقتبل العمر، أحدهما يُدعى خالد والآخر علي، وكان معهما رجل مسن يُدعى غانم، بالإضافة إلى شاب أصغر سنّاً يُدعى سليم.

كانت الجماعة على ما يبدو عائلة واحدة، ومن حسن حظ فهد وفريد أنهما اندمجا معهم بسرعة. وبالرغم من أن الرحلة كانت مرهقة، فإن الأحاديث الممتعة والمزاح اللطيف جعلها تمرّ دون أن يشعروا بطولها.

*لم يصرّح فهد ولا فريد بسبب فرارهما، لكن ذلك لم يُعق اندماجهما بالجماعة، خاصة مع روحهما المنفتحة ومحاولتهما إظهار جانبٍ مرحٍ يعكس رغبتهما في بداية جديدة مختلفة عن الماضي.

حلّ الليل، وكان عليهم أن يتوقفوا عن السير ليسترىحوا قليلاً قبل أن يُكملوا رحلتهم فجر الغد.

نصبوا خيمتهم لقضاء الليلة بداخلها، وأشعلوا النار، وقضوا بعض الوقت مجتمعين حولها، يتبادلون الأحاديث في أجواء دافئة ومسلية.

وبعد سهرة طويلة امتلأت بالحديث والمرح، أطفأوا الأنوار واستعدوا للنوم.

وقبل أن يخلدوا إلى الراحة، أوصاهم الرجل المسن "غانم" أن يتوخوا الحذر، فالمنطقة معروفة بوجود بعض من أخطر الأفاعي السامة.

كان غانم ذا خبرة واسعة في أنواع الأفاعي وسمومها، بل وفي كيفية معالجتها بالأعشاب.

أوماً فهد موافقاً، ثم قال بتوكل: * "قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا" *.

ثم غطّ في النوم كلّ من غانم وخالد وسليم وعلي.

أما فهد وفريد، فقد فضّلا مواصلة السهر سوياً خارج المخيم، ولم يُصرّ عليهما أحد للنوم...

كان فهد متحمسًا للرحلة، بينما كان فريد – عفواً، رأفت –
يأمل أن تكون هذه الرحلة بدايةً لحياة أفضل، تُنسيهما ما مرا
به من أذى.

ساد الصمت للحظات بينما كانا مستلقيين على ظهريهما
يتأملان القمر وهو بدر.

قطع فريد الصمت قائلاً:

"ربما ما فعله القدر بنا كان ليعوض كلاً منا بالآخر عن
عائلته."

رد فهد قائلاً:

"ربما كلانا نعوض بعضنا عن عائلتنا، لأن أبي وأمي لم أشعر يوماً بالسعادة لكونهم أهلي. وحتى عندما قتلتهم، لم أرَ أمامي سوى ظلام مجرمين أنذال.

الفرحة الحقيقية كانت عندما ارتاح العالم من شرهم. لكن الانتماء الحقيقي... كان عندما كنت أذهب معك إلى بيتك، وتفرح ابنتك بقدومي، ونلعب سوياً.

عندها فقط، كنت أشعر أنني بين أفراد عائلتي، بين عائلتي الحقيقية.

لطالما كانت شمس أختاً لي، وأمل ابنتي كما هي ابنتك.

أما أنت..."

صمت لوهلة، ثم التفت إليه، ووضع يده على كفه والدموع
تغرق عينيه:

"أما أنت، فكنت، ولا تزال، وستبقى دائماً توأم روعي الذي
لم تنجبه أمي."

شحنت الأجواء بالعاطفة، فرد فريد بتأثر:

"أتعلم يا فهد... لم أكن أعلم أنك تحب عائلتي لهذه الدرجة
وتعتبرها عائلتك."

لكنني كنت أعلم شيئاً واحداً: أنني لم أكن أملك في هذه الدنيا
سواك أنت، وتلك العائلة التي كنت أكثر من مجرد فردٍ فيها.

في الحقيقة، أحياناً أخاف أن يكون حزني على فراق عائلتي
حاجزاً يمنعك من نسيان أهلك وظلمهم، وخاصة ما فعلوه
بعائلتي في ذلك اليوم المشؤوم..."

فقاطعه فهد مواسيًا:

"الحقيقة الوحيدة، هي أنك أنت عائلتي الوحيدة، سواء في حياتي القديمة أو الجديدة، وستبقى كذلك دومًا. وأتمنى أن تكون أنت أيضا....."

قبل أن يُكمل، ضربه فريد بلطف مداعبًا، ثم قال مازحًا:

"يا لك من غبي! الناس يتمنّون ما لم يحظوا به بعد، وأنت تتمنّي ما أنت على يقين أنه بحوزتك منذ زمن طويل!"

ضحك فهد، ثم قال بجديّة مصطنعة:

"يبدو أنك تخلق الأسباب لضربي منذ أن تذوقت طعم صَفعي اللذيذ."

فضحكا سويًا لما قالاه، ثم نطق فريد مستأنفًا، وسأل:

"تري، ما الأمر الجيّد الذي فعلته في حياتي حتى يُكافئني الله وينعم عليّ بصديق مثلك؟"

فردّ فهد مازحًا:

"ربما لأنك سميتَ أحدهم باسم جميل كـ... *فهد*!"

ليعود الضحك بينهما مجددًا، وينقلب حديثهما من حزن وندب إلى مزاح وضحك.

مرت فترة وهما يواصلان السهر، يتبادلان القصص القديمة والظريفة التي سبق وحدثت معهما، حتى نطق فهد قائلاً:

"لقد سهرنا بما فيه الكفاية، ولا تزال أمامنا رحلة طويلة. علينا أن ننام ما يكفي حتى نتمكن من مواصلة الرحلة بارتياح."

استعدّا للنوم، ثم قال كلٌّ منهما للآخر:

"تصبح على خير."

وأردف أحدهما مداعبًا:

"تصبح على حياةٍ أفضل، بإذن الله."

ثم خلدا إلى النوم على الفور، دون أن يدخلوا إلى المخيم،
وهما ينويان أن يبدأ حياة جديدة سوياً... لكن للقدر رأياً آخر.

كان غانم قد حذرهما من وجود الأفاعي في المنطقة، لكن ما
لم يكن يعرفه هو أن القدر كتب لهما قصة مع واحدةٍ منها...

ما إن غرقا في سبات عميق، حتى زارتهما تلك الحيّة ذات
السّم القوي، ونفذت ما أمرت به: لدغت *فريد* دون أن
يشعر، ثم عادت أدراجها بعد أن أذت أغلى ما يملك *فهد*.

واصل فريد نومه، أو بالأحرى، فقدانه للوعي...

مرت بضع ساعات على نومهما، إلى أن حان موعد صلاة
الفجر...

استيقظ فهد فور دخول وقت الصلاة، فقرّر أن يؤدي فرضه أولاً، ثم يوقظ صديقه لاحقاً حتى لا يزعجه مبكراً. رغم استغرابه من استمرار نومه كل هذا الوقت، على غير عادته، تجاهل الأمر مؤقتاً.

قام فهد وتوضأ ثم صلّى، ولم تكن خيوط الصباح قد اتضحت بعد. أطلّ في جلسته بعد الصلاة، حتى تسلل إليه ضوء النهار، فأدرك أن الصباح قد حلّ بالفعل. حينها تذكّر ما قاله فريد ليلة أمس: "تصبح على حياة أفضل بإذن الله". فابتسم تلقائياً، ثم التفت نحوه.

*لكنّه صُدم حين رآه جامدًا في مكانه، لا تتحرك منه شعرة.
اقترب منه بهدوء، يناديه عدّة مرات دون أن يجيب. كان
فريد قد ولى ظهره له، فمدّ فهد يده المرتجفة ووضعها على
كتفه، ثم جذبته نحوه بخوف. فإذا به أزرق الجسد، تتدفق
الرغوة من فمه كطوفان؛ فقد أخذ سمّ الأفعى مفعوله
الكامل.*

*أصيب فهد بصدمة من المشهد، وهرع مناديًا غانم بقلق
شديد، مستنجدًا بخبرته في مثل هذه الأمور.*

*خرج غانم ومن معه مسرعين من الخيمة، ففُوجئوا بما حلّ
بفريد. كانت لدغة الأفعى واضحة على جانب وريد عنقه
الأيسر، حيث تُقاس الحياة بأنفاسها.*

*انحنى غانم نحو جسده، تمعن في مكان اللدغة، ثم نطق
بشكل تلقائي: "أسكلاب".*

*نظر إليه الجميع بتعجب، لم يفهم أحد ما قال. فسأله فهد
بقلق: "ماذا تعني؟ ماذا حلّ به؟"*

*أجاب غانم بعد أن التقط أنفاسه: "إنها واحدة من أخطر
الآفاعي، وإن لم يتم التدخل الفوري، فالموت خلال ساعات
مسألة حتمية".*

فقال فهد بانفعال: "لِمَ لا تساعدّه إذا؟"

*عاد غانم يتحسس عنق فريد بسبابته ووسطاه، ثم قال: "يبدو
أن الألوان قد فات".*

اتسعت عينا فهد وقال مرتجفاً: "ماذا تعني بأن الأوان قد فات؟"

*أجابه غانم: "لقد لدغته أفعى الأسكلاب ليلة أمس، وكان نائماً حينها، ما سهّل انتشار السم في جسده، وصعب علينا إنقاذه. للأسف..."

"فهو الآن بالكاد يتنفس، والنبتة التي قد تساهم في إنقاذ حياته تبعد ساعات عن موقعهم، وحتى ذلك الحين... سيكون قد فارق الحياة."

قبل أن يُكمل كلامه، قاطعه فهد بحزم:

"لن أسمح بحدوث ذلك!"

ثم أردف بحماس:

"إن كانت تلك النبتة قادرة على إعادة الحياة لأخي، فسأبذل قصارى جهدي لأحضرها، وبأي ثمن، بإذن الله."

أجابه غانم بيأس:

"لا تُتعب نفسك، فمهما فعلت، من المستحيل أن تصل بها في الوقت المناسب. من الأفضل لك أن تودّع صديقك، وأن تكون إلى جانبه في لحظاته الأخيرة."

رغم أن كلمات غانم وقعت على فهد كالصاعقة، وغرست في قلبه كسكاكين باردة، إلا أنه تماسك ونطق بإصرار:

"لن تخسرني المحاولة شيئاً، لكن ما سيقتلني وأنا على قيد الحياة، هو أن أفقد صديقي دون أن أفعل شيئاً."

وصف غانم النبتة لفهد، وبدأ يخبره عن الطريق، لكن قبل أن يُكمل، أصابت فريد رجفة شديدة ورعشة كأن جسده يتجمّد، وتضاعفت الرغبة في فمه، بينما بدأ لون شفثيه يميل إلى السواد.

ركض فهد مهرولاً نحوه، غطّاه بسرعة، لكن دون جدوى. حمّله إلى المخيم، أشعل النيران بجانبه، ثم أكّد على غانم أن ينتبه له جيّداً في غيابه. أوماً غانم إيجاباً ليطمئنّه، فطلب فهد من علي أن يصحبه ليدلّه على الطريق ويساعده في الوصول إلى النبتة بأسرع وقت.

كان سليم أكثرهم تعلقاً بفريد، فقد دخل قلبه منذ لقائه الأول به. جلس إلى جانبه فوراً، واضعاً يده على جبينه بحنان. لاحظ فهد، فطمأنه قائلاً:

"صديقي في أيادٍ أمينة، بين حنانك وخبرة غانم."*

خطر لسليم للحظة أن يذهب هو لجلب النبتة برفقة أخيه،
لكنه سرعان ما اصطدم برفض فهد، الذي صده قائلاً بحزم:
"فريد هو عائلتي ومسؤوليتي، ولن أسمح أن يصيبه مكروه،
ولا أن يتولى غيري إنقاذه.

غانم بحاجة إلى خالد وسليم بجانبه، ليساعده إن لزم الأمر،
وسأكون أكثر اطمئنناً إذا تيقنت أنك تغمر صديقي بعنايتك
أثناء غيابي.

والآن أرجوك، لا تؤخرني أكثر... فكل لحظة من وقتي
يجب أن تكون في سبيل إنقاذه."

اقتنع سليم بكلام فهد ووافق على البقاء إلى جانب فريد إلى حين عودته.

انطلق فهد برفقة علي للبحث عن النبتة، وكانت رحلتهما ستكون على ظهر الجمال، ما كان سيسبب تأخرهما، لولا أن وجود حصان فريد أسعفهما، فاستغلاه وامتطياه معًا.

بفضل سرعة الحصان، وصلا إلى المكان في وقت قياسي، وشرعا في البحث عن النبتة فورًا.

وبفضل خبرة علي، عثرا عليها بسرعة، فأخذا منها كمية كافية، ثم عادا على الفور، يمتطيان حصانهما مسرعين.

لكن، وفور أن صعد فهد إلى ظهر الحصان، وقبل أن يلحق به علي، بدا الحصان وكأنه يثور من ألم مفاجئ، ففقد فهد السيطرة عليه، وسقط أرضًا.

حاول فهد الصعود مجددًا بإصرار، لكن علي لاحظ أمرًا غريبًا في رجل الحصان... اقترب منه ليتفحصه، فصُدِم حين رأى نفس علامة اللدغة التي وُجدت على عنق فريد. لقد لدغت الأفعى أسكلاب الحصان أيضًا، ويبدو أنها فعلت ذلك في الفترة التي تُرك فيها بمفرده أثناء بحثهما عن النبتة.

أخبر علي فهد بما اكتشفه، فقررا أن يبقى علي إلى جانب الحصان لمعالجته، في حين...

...في حين انطلق فهد لجلب العشبَة لإنقاذ فريد، حاول علي إيقافه، مخبرًا إياه أن من المستحيل أن يصل في الوقت المناسب.

لكن فهد بقي مصرًا على موقفه، ثابتًا على عزمته، عاقد النية على أن يعود ركضًا على قدميه، حتى وإن كلفه ذلك حياته،

فما قيمة حياته إن لم يستطع إنقاذ توأم روحه؟

*"في بعض الأحيان، نكون على يقينٍ في أعماقنا أن كل شيء قد انتهى بالفعل،

لكننا نبقى متمسكين بأوهام من الأمل، نحاول إقناع أنفسنا أن الأوان لم يفت بعد..."*

استسلم علي أمام إصرار فهد، ووافقه الرأي على مضمض.
انطلق فهد، يركض وسط الأشجار والأشواك، وقد تفترت
قدماه بالدماء،

لكنه لم يبال،

**ففي رأسه فكرة واحدة فقط:

ليس له في هذا العالم أحدٌ سواه، ولن يسمح له بالرحيل
وتركه وحده. **

ركض بقلب مشتعل، وجسدٍ يئن، حتى وصل...

وأخيراً...

حمل الدواء بيده لأجل صديقه.

وحين وصل فهد، كان فريد بالكاد تُدرك نبضات قلبه،
طريحًا محتضرًا تحت رعاية غانم وخالد وسليم. وضع غانم
فورًا تلك العشبة على عنق فريد، حيث كانت اللدغة.

كان فهد يلتقط أنفاسه وتتسارع نبضات قلبه خوفًا على
توأمه، متعبًا من المسافة التي قطعها حافي القدمين. لكن ما
إن سمع خبر استعادة فريد لوعيه، حتى اختفى كل ذلك
التعب.

لم يكن فريد يردد سوى اسم توأمه، رغم أنه بالكاد يتمكن من
النطق. هرع فهد باتجاهه، أمسك بيده على الفور وهو جالس
بجواره، وبدأ يواسيه قائلاً:

"سنكمل رحلتنا معًا كما اتفقنا سابقًا."

وافق الجميع يومئذ برؤوسهم، مبتسمين بدموع فرح،
محاولين إقناع فريد بكلام فهد.

لاحظ غانم فجأة أن فريد يحاول قول شيء ما...

*وسط عجزه الواضح، لم يُتاح فهد لصديقه فرصة حتى
ينطق، إذ كان يثرثر بلا توقف انعكاسًا لقلقه وخوفه من
خسارته.*

أشار له غانم أن يهدأ قليلًا، فصديقه لديه ما يريد قوله.

اندفع فهد متسائلاً، وخوفه واضح في نبرته:

– "أجل، قل ما بك؟ أين تشعر بالألم؟ هل يؤلمك شيء؟"

فأجابه فريد بصوت هادئ:

– "لم يعد للألم مكان الآن..."

ثم أردف قائلاً:

– "ربما في موتي حكمة... حتى لا أعيق نسيانك لما عشته
معي من الألم."

ربما من الأفضل أن أتركك تكمل رحلتك وحدك، أن أتركك
تبدأ حياتك الجديدة دون شيء يذكرك بالماضي.

فقط تذكر أن الخير دائماً فيما يكتبه الله، واعلم أنه إن فقدتني
اليوم، فلا تعتبرها خسارة.

بل تيقن أن ربك كريم، وسيعوضك بمن هو خير مني..."

ثم صمت للحظة من شدة التعب، قبل أن يواصل بصوتٍ بالكاد يُسمع:

— "لقد كنتُ عائلتك، رغم أننا لم نكن من دمٍ واحد. وبنفس الطريقة... ربما ستلتقي بأشخاصٍ يكونون عائلتك الجديدة، وتعيش معهم حياةً أفضل بإذن الله."

فهد لم يستوعب كلمات فريد حينها، فقد كان القلق والخوف يلتهمانه، وربما سيدرك المعنى لاحقاً...

واصل فريد كلماته، وقد ازدادت نبرته ضعفاً:

— "إياك أن تنسى ما قلته لك الآن... أكمل حياتك، فالحياة لا تتوقف لأجل أحد."

والآن، أستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه..."

ولم ينتهِ من كلماته تلك، حتى بدأ يستقبل الموت بابتسامة مودّعة.

ثم نطق الشهادتين في لحظاته الأخيرة:

"أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله..."

ثم انتقل إلى جوار ربه.

حينها، خيّمت الدموع على عيون الجميع، وأسدلت ستائر الحزن على القلوب، وكان التأثير الأكبر ظاهرًا على سليم. أما فهد، فكان الوجد قد اجتاح خلايا جسده، وبلغ في قلبه ذروته.

مرت الأيام عليه وهو يموت كل يوم رغم بقائه على قيد الحياة، يختنق حزناً حتى تتوقف أنفاسه وتتباطأ نبضاته مع كل ذكرى لتوأمه، محاولاً استيعاب فراقه. حاول كل من غانم وسليم وخالد وعلي الوقوف إلى جانبه، يخفون عنه ما يزيد من تماسكهم وتعلقهم ببعضهم البعض.

استمرت رحلتهم لأيام، واقترب موعد وصولهم إلى سنابل
بعد رحلة شاقة. كانت تلك ليلتهم الأخيرة في السفر، فجمعوا
كعادتهم بعد نصب المخيم وإشعال النار بجانبهم، لكن هذه
المرّة ليس في منطقة حيايا كما كان سابقاً.

بعد الفترة التي قضاها فهد في الحزن، وهم يحاولون بقدر
الإمكان التخفيف عنه، تأكد أنه أصبح يثق بهم، وبدأ يشعر
بالارتياح بينهم. فسأله سليم عن سبب قدومه إلى سنابل من
هذه المسافة البعيدة، فقرر فهد أن يروي لهم قصته من
بدايتها...

بدأ بسرد قصته وسط اندهاش الجميع، لم يقاطعه أحد. لكن ما إن أنهى سرد القصة، حتى تبادلوا نظرات استغراب ثم بدأوا يسألون عن أكثر ما أثار دهشتهم:

سليم: هل تقصد أنك قتلت أبويك؟

خالد: طعنوا المرأة وهي في آلام الولادة؟

علي: قطعوا رأس طفلة صغيرة؟

غانم: ولماذا يحاول الشعب قتلك؟

ثم تعالت عباراتهم مستنكرين: "يا للوحشية والتخلف، لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم."

أجاب فهد على معظم تساؤلاتهم، مؤكداً صحتها مع شرح موقفه حين قتل أهله، آملاً أن يتفهموا وضعه ويقفوا إلى جانبه. وفعلاً، تعاطف الجميع معه، مقدمين له دعمهم المعنوي، ليكملوا سهرتهم بانسجام تام.

حتى تأخر الوقت وآوى كل منهم إلى فراشه متحمساً ليوم
غد،

لكن ما إن استلقى فهد على الأرضية مواجهًا القمر، حتى
تذكر صديقه.

مرت فترة وهو يتساقط دموعاً شوقاً، متسائلاً:

"ترى ماذا يخبئ لي القدر بعد؟ وكيف ستكون حياتي بعد
فقدان حياتي معه؟"

ثم تسلل إليه النعاس ليغلبه.

حل الصباح أخيراً، وجاءت اللحظة التي كانوا ينتظرونها،
تشرق شمس يوم جديد كمفترق طرق لهم، وبداية حياة جديدة
لفهد.

واصلوا سيرهم، يتبادلون آخر أحاديثهم في نهاية الرحلة التي
جمعتهم،

ولم يصلوا إلى سنابل إلا بعد صلاة العصر.

كان فهد محتاراً حينها، من أين يبدأ؟ وكيف يتأقلم مع العيش
في بلدة لم يزرها من قبل، ولا يعرف عنها أي تفصيل
صغير؟

وكيف سيدبر أمره بمفرده؟

لاحظ غانم تشتتته، فاقترح عليه:

"لماذا لا تبقى معنا؟"

فأنت وحدك في هذا المكان، ولا أحد يعرفك سوانا.

سيسعدنا أن تنضم لعائلتنا وتكون فردًا منا."

أيد الجميع كلام غانم، واقترحوا نفس الفكرة،

لكن لفهد رأي آخر، فقال:

"في الحقيقة، أنا ممتن لاهتمامكم بي، وأشكر كل ما قدمتموه لي حتى الآن.

لقد عشت معكم فترة كفيلة بأن تريني مدى طيبة قلوبكم،

شاركتموني لحظات سعادتي وحتى حزني، ولن أنسى ذلك أبداً.

لكنني أرب في أن أشق طريقي بنفسي، وأنا واثق أن القدر الذي أوصلني إلى هنا سيدبر أمري.

سأتوكل على ربي وأكمل طريقي الذي رسمه لي بمفردي."

حاولوا إقناعه بشدة، لكنه لم يقتنع، ففضلوا احترام قراره،

وعانقه كل منهم مودعاً له.

عبر عن سروره وشرفه بلقائهم، ودامت فترة وداعهم لا بأس بها، ومن ثم افتقرت أقدارهم ليصبح لقاءهم مجرد نسمات عابرة. بقي فهد واقفاً بمفرده، تتدفق إليه الأفكار في ذهنه بلا توقف. تساءل في نفسه: كيف سأتمكن من العيش هنا؟ وما هو الأمر المخبأ في مستقبلي؟ استمرت هذه التساؤلات حتى توقفت عيناه على حصانه التوأم الواقف بجانبه، فاستذكر كلمات فريد على فراش موته، وأعاد ترتيبها في ذهنه، ليقرر أن يسلم نفسه لقدره، ويرسم له الطريق كيفما شاء.

بدأ يسير كمن يمشي على العميان، مسلماً أمره إلى ربه، متجهاً حيث تسحبه قدماه لسبب جهله، ينتظر أي تلميح يكون نقطة انطلاق لحياته الجديدة. وبينما يمشي، يعبر ذهنه شريط ماضيه، وقبل أن يتوقف ذلك الشريط عند وفاة توأمه، رأى مشهداً يبعد أمتاراً عنه...

كان المشهد كالتالي: امرأة مسنة تعيق سيرها التواء كاحلها، وفي الاتجاه المعاكس، رجل فقد السيطرة على حصانه، إذ توجه المهر نحو المرأة وعيونه تشع بالثورة. في لحظة حيرة، لم يجد فهد سوى الركض موازياً للحصان بسرعة تكاد تفوقه. بأسلوب فارسي امتطى المهر أثناء ركضه، وبدأ يروّضه حتى أعلن المهر استسلامه وانسجامه معه.

تمكن فهد من إيقاف الحصان، وكانت أنفاسه تلامس المرأة لشدة قربها منها، فقد كان على وشك دسها لولا تدخله. ربت على ظهر المهر مهدئاً إياه، ثم انعطفت به وأعادته إلى صاحبه. وما أن أمسك صاحب المهر لجامه، حتى عاد مسرعاً لمساعدة المرأة على الوقوف بعد أن سقطت من شدة خوفها. وكان ابنها يقف على بعد منهما، وسُمح له برؤية لحظة الإنقاذ بعدما أوشك قلبه على التوقف من شدة الخوف على أمه، ثم هرول مسرعاً نحو فهد، متجهاً إلى أمه.

بدأ الابن في تفحص أحوال أمه دون أن يعير انتباهه لوقوف
فهد بجانبهما. استمر في تفحصها، مداهاً لها بالسؤال عما
إذا كان مكروه قد أصابها، بينما كانت الأم تحقق في فهد
متمعنة ملامحه، كأنها تعرفه منذ زمن طويل فارقتة.
استمرت نظراتها تلك حتى شعرت بوخز في قدمها أعاد لها
وعينا، وابنها لا يزال القلق مخيماً في قلبه. فأومأت له بأنها
بخير، ثم وجهت نظراتها نحو فهد مجدداً، ونطقت شاكرة له،
فشكره الابن هو الآخر، وانطلق مسنداً أمه على كتفه، ونظر
لألم كاحلها. بقيت الأم تلتفت من حين لآخر نحو فهد حتى
حجبت رؤيتها له ابتعادها. وبعد أن غادرت، خاطبت ابنها
قائلة: "أتراه

يا فاضل، كم يشبه هذا الشاب أخاك فياض المتوفي؟" أوماً
فاضل مؤيداً لها.

كانت حنان قد فقدت أبا فاضل التوأم منذ فترة في وباء
تسبب في قتله، وكان ابنها فياض يشبه فهد شبها غريباً،
جعلها فور رؤيتها له تتدفق مشاعرها تجاهه، كأنه ابنها...

همّ فهد بالرحيل، لولا أن نادى عليه صاحب الحصان ليشكره هو الآخر، ثم قال له: "هل يمكنني أن أعرض عليك عرضاً، وأتمنى ألا ترفض؟" أوماً فهد، مشيراً لمحمود أن يكمل. فأردف محمود:

"في الحقيقة، أنا أملك إسطبلًا في هذه المنطقة، وأشرف على رعاية أحصنته منذ زمن طويل. بيتي بجانبه، وأنا مسؤول أيضاً عن بيع تلك الأحصنة أو إيجارها. باختصار، أدير كل ما يتعلق بذلك الإسطبل، لكن هذه الفترة لديّ فترة عمل علي القيام بها خارج البلاد. كما رأيت، ليس من السهل التعامل مع الأحصنة؛ فأنا أعيش معهم منذ زمن طويل، وعلى الرغم من ذلك فقدت السيطرة على أحدهم للتو، كما رأيت. فما بالك بشخص آخر؟ لكنني متأكد أن من استطاع السيطرة على ذلك المهر في أصعب حالاته لا شك قادر على إدارة أعمالي ريثما أعود..."

ما إن وقعت تلك الكلمات على مسامع فهد، حتى تضاربت
مشاعره ما بين الفرح والذهول مما آلت إليه الأقدار.

ظل في تفكّر عميق ينصت لكلام محمود، الذي واصل حديثه
قائلاً:

"وأتمنى أن توافق على إدارة أعمالي إلى أن أعود. لن
تستمر رحلتي أكثر من شهر على أقصى تقدير."

صمت محمود لوهلة ينتظر رداً من فهد، الذي كان يحاول
ترتيب كلماته في ذهنه، لا يكاد يصدق أن أموره تتيسر بهذه
السرعة.

وسط شروده، سأله محمود مجدداً إن كان سيوافق على
العرض أم لا.

فأجاب فهد بسرعة:

"بالطبع لا."

ظن محمود حينها أنه يرفض، قبل أن يكمل فهد موضحاً
بابتسامة:

"أقصد أنني بالطبع لن أرفض عرضاً كهذا، فأنا في الأصل
كنت أبحث عن عمل بهذه المواصفات، ولا أجيد سوى
ترويض الأحصنة."

تناقشا في تفاصيل العمل لفترة قصيرة، ثم اتفقا على أن يبدأ
فهد العمل بعد يومين، أي بعد سفر محمود.

لكن محمود عرض عليه أن يبقى معه منذ الآن، فقبل فهد
العرض بسعادة وامتنان...

سمح له بالبقاء معه حتى يتعود على طبيعة العمل، ثم طمأنه بعد أن لاحظ انشغال ذهنه قليلاً: "لا داعي لأن تقلق بشأن النقود، فلن ينقصك شيء في فترة غيابي، كما أنني لست مهتماً بأن أقاسمك محصولك من بيع الأحصنة أو إيجارها. كل ما يهمني الآن هو استمرارية العمل. أعتقد أنه مهما قلّ محصول الإيجار، سيكون لي إبقاء العمل قائماً ريثما أعود. ومن المستحيل أن تبيع كل الأحصنة في فترة غيابي، وحتى لو افترضنا أنك حققت ذلك، فلا مشكلة، يمكنك الاحتفاظ بالأموال لنفسك. سأعود أنا ومع فوج جديد من الأحصنة، لكن فقط ابقَ مستحضراً ما قلته: ما يهمني هو استمرارية العمل."

ظل فهد مصرأً على أن يشارك محمود أموال بيع الأحصنة
في حال بيعت في غيابه. كان محمود مستبعداً حدوث ذلك،
لكنه وافق مع إصرار فهد

اصطحبه محمود إلى منزله، وشرح له ما عليه القيام به، كما
أراه الإسطنبول.

كان محمود قد استأجر امرأة تطهو له، لكن فهد أصر على
دفع أجرها في غيابه.

مر وقت طويل أثناء نقاشهما، انتهى باتفاق أرضى كليهما،
وترك انطباعاً طيباً في نفس كل منهما عن الآخر.

في صباح اليوم التالي، بدأ فهد بالتعرف على الخيول،
ولحسن حظه، بدا أن الأحصنة قد ارتاحت له أيضًا.

بعد قليل، جاء فاضل لمقابلته والاعتذار عما حدث في اليوم
السابق، وقال:

"في الحقيقة، اضطررت أمس للمغادرة دون أن أقدم الشكر
كما يجب. فقد أفقدني ألم والدتي التركيز، ولم أكن أفكر سوى
في كاحلها المصاب."

رد فهد بتفهم، لكن قلبه بدأ يميل لهذا الشاب، الذي يشبه
صديقه الراحل فريد بشكل لافت؛ من لون عينيهِ البنيتين، إلى
شعره الأسود الحالك، وبشرته النحاسية، وحتى طولهِ.

كأن فريد قد عاد ليقف أمامه من جديد، فضل شاردًا في
تفاصيل هذا الشبه العجيب.

وما كان القدر ليتوقف عند هذا الحد، إذ كانت تراود فاضل
نفس المشاعر...

فقد بدا فهد في عينيه صورة توأمه المتوفي "فياض"، وكان
الشبه بينهما غريباً حد الإدهاش.

كلما تأمل عينيه العسليتين، وشعره الأسود، وابتسامته التي
جمعت بين الطيبة والجاذبية، شعر وكأن القدر قد أعاد له
توأمه الضائع.

انسجما في الحديث سريعاً، وشعر كل منهما بمشاعر
متداخلة؛ مزيج من لقاء الحبيب بعد اليأس، وراحة العثور
على صديق يحمل قلباً نقياً.

فاضل أحب فهد لأنه يشبه توأمه، وفهد أحب فاضل لأنه يذكره بتوأمه هو الآخر، وإن كان بطريقة مختلفة...

تبادلا أطراف الحديث طويلاً، حتى خطر لفهد أن يسأله عن سر نظرات والدته له في اليوم السابق.

فكر فاضل قليلاً في حال أمه، التي ما زالت حبيسة حزنها على فقدان فياض، وتردد في أن يخبر فهد بالقصة، لا سيما أنه لم يعرفه جيداً بعد...

لكن...

لكن فاضل توصّل في النهاية إلى أن تلك القصة لا تحتاج إلى "ثقة" لسردها، بقدر ما تحتاج إلى انفتاح القلب على أحدهم، وكان هذا حاله مع فهد.

فروى له القصة بكل تفاصيلها، موضحاً أن أمه رأت صورة ابنها الراحل في ملامحه، فتعاطفت معه منذ اللحظة الأولى لرؤيته.

تفهم فهد مشاعر أم فاضل وتعاطف معها، لذا قرر زيارتها في منزلها، لعل رؤيته تحسّن من حالتها وتخفّف عنها ألم فراق ابنها.

أيد فاضل هذا القرار، إلا أنهما اتفقا على تأجيل الزيارة إلى أن يستقر فهد في عمله.

عبّر فاضل عن امتنانه العميق لفهد لطيبة قلبه، ثم ودّعه واعدًا بلقاء قريب بإذن الله.

مرت الأيام، وسافر محمود كما كان مقرراً،

وتطورت علاقة فهد بفاضل، مما عزز "الشبه" قوة هذا الارتباط بينهما، إلى أن جاء اليوم الذي اتفق فيه فاضل مع فهد على أن يصحبه إلى منزله.

وما إن وصل فهد إلى منزل فاضل، حتى غمرته "حنان"
- والدۀ فاضل - بحبها، وكأنها تشتاق له منذ زمن طويل.
ثم دعت ابنتيها، "ورد" و"سهام"، للترحيب به.

لكن ما إن التقت عينا "ورد" و"فهد"، حتى طرقت باب قلبه
مشاعر لم يختبرها من قبل.

أسرت قلبه منذ تلك اللحظة، بجمال عينيها السوداوين
الواسعتين، وما إن ابتسمت بعفوية حتى تيقن أنه لن يتحرر
من أسرها مدى الحياة.

ظلّ شاردًا في تفاصيل وجهها، مأخوذًا بتلك النظرات، حتى أيقظه صوت فاضل قائلاً: "أعرفك بأختي ورد،"

ثم أشار إلى الجهة الأخرى قائلاً: "وهذه أختها الصغرى، سهام."

فتمتم فهد في نفسه: "أرى أن الأخت الكبرى هي من أصاب قلبي بسهامه."

سأله فاضل وكأنه لمح ما قاله، فأوماً فهد نافيًا:

"لا شيء... فقط تشرفت بلقائكم."

ثم بدأ يعبر عن سعادته بقاء العائلة، وتدرج الحديث
بسلسلة، ليبدأ بذلك خيط جديد من الألفة يربطه بتلك الأسرة.

، وسرعان ما بدأت الأحاديث تأخذ حريتها، لتربطه أكثر
بذلك البيت الدافئ... بيتٌ ربما كُتب له أن يجد فيه عائلته
التي لم تكن من دمه، لكنها من روحه

استمرت أحاديثهم لفترة، وسط انسجام تام، حتى انضم إليهم
عبد القادر.

استغرب في البداية حين علم أن ابنه قد جلب صديقًا إلى المنزل، إذ لم يفعل ذلك من قبل، خاصة بعد وفاة توأمه - *فَيَّاض* - والتي كانت سببًا في انغلاقه وعزلته؛ فقد انطفأ جانب من شخصيته يوم فقد أعز أصدقائه.

لكن سرعان ما ارتسمت السعادة على وجه عبد القادر، حين رأى البهجة تعود إلى ملامح ابنه، التي غابت عنه منذ زمن بعيد.

وما هي إلا لحظات من تبادل الاستفسارات، حتى انخرط عبد القادر هو الآخر في تلك الأحاديث، والتي تمحورت أغلبها حول الحياة في *سنابل*، كون فهد يزورها لأول مرة.

كان اهتمام العائلة به *زائداً عن المعتاد*، لكنه لم يُظهر أي امتعاض، تقديرًا لمشاعرهم، وخصوصًا أنه هو الآخر افتقد أجواء العائلة منذ زمن طويل، منذ وفاة عائلة *فريد*...

بقي فهد معهم ساعاتٍ عدة، غمرت السعادة قلوب الجميع خلالها، ثم همّ بالرحيل، لكنهم لم يتركوه يمضي إلا بعد أن وعدهم بزيارة قريبة أخرى، بإذن الله.

كثرت الزيارات المتبادلة بين فهد وفاضل، وازدادت أواصر صداقتهما قوة، فكانا يتسابقان بالأحصنة من وقت لآخر، يتسلّيان كطفلين رغم ما مرّ بكل منهما من مأسٍ.

ومع مرور الوقت، بدأت أمور فهد تتيسر شيئاً فشيئاً، بينما ظلت *ورد*، رغم انطوائيتها، تخفي خلف صمتها قلباً يخفق عشقاً لفهد. لم يكن سهلاً عليها الاعتراف بما تشعر به، فقد كانت تخشى أن لا يبادلها نفس الشعور، فينكسر قلبها بصمت.

لكن المفارقة أن *فهد* كان يمرّ بذات الصراع*؛ كان قلبه يتمنى أن يكتب اسم ورد في صحيفة قدره، لكنه لم يشأ أن يفسد علاقته الوطيدة مع فاضل بأي تعقيد عاطفي. حاول مراراً أن يفتح الموضوع معه، لكن *الخوف من الرفض أو الإحراج كان يكبله*.

إلى أن جاء اليوم الذي قرر فيه، بعد طول تردد، أن يجد
طريقة ليبيح فيها بما في قلبه.

انتهيا للتو من سباق خيول جديد بينهما، بفوز فهد كعادته،
فقال ضاحكًا:

*"أعتقد أنه عليك ألا تفكر في منافستي على الإطلاق، بعد
أن هزمتك كل هذه المرات المتتالية."*

ثم أردف مازحًا:

*"لا تقلق، لن أخبر أحدًا أنني دائمًا ما أهزمك... بل على
العكس، سأقول إنك لم تهزمني يومًا، وإنني لم أعد أطيق
اللعب معك حفاظًا على سمعتك!"*

ثم *انفجر ضاحكًا* وهو ينظر إلى فاضل نظرة فيها مزاح... لكنها تمهّد لشيء أعمق.

— لن تدوم ضحكك المستفزة طويلاً! يوماً ما سأهزمك، بل سأكررها مراراً حتى أحطم رقمك القياسي! قاطعه فهد ضاحكاً:

— تقصد رقم الفشل القياسي؟

ثم واصل ضحكه، قبل أن يتظاهر بالجدية وكأنه عثر فجأة على حل عبقرى، رغم أنه من اختلقه:

— لكن ما رأيك أن تعرفني على إحدى فتيات القرية؟ على الأقل أنشغل بها عن هزيمتك!

ردّ فاضل بمزاح:

– في الأصل، من يوم هزمتني ثلاث مرات متتالية، وأنا
أتمنى أجد لك شيء يلهيك عني... عشان ألحق أخطط
لهزيمتك في الجولة الجاية.

ضحكا سوياً، ثم أكمل فاضل بجديّة:

– الغريب أنك ما فكرت بالزواج لحد الآن، ونساء القرية ما
شاء الله، يخزي العين، عددهم أكثر منا بكثير!

ضحك فهد:

– طيّب ليه ما خذت منهم أربع دفعة وحدة بدل ما تبقى
عانس مثل البنات؟

ضحك فاضل بشدة وقال:

— دعك مني، ما خطبك أنت؟ ألم تجد نصفك الآخر بعد؟

رد فهد بنبرة حزينة:

— وجدته... لكن لم أتحلّ بالشجاعة لأبوح بمشاعري.

قال فاضل بفرح وذهول:

— حقاً؟! وماذا تنتظر إذا؟ زواجها مثلاً؟!

تهرّب فهد من الحديث قائلاً:

— على العموم نكمل حديثنا لاحقاً... عندي شغل الآن، إلى اللقاء.

فاضل باستغراب وتردد:

— على راحتك...

بعد مغادرة فهد، بدأ يلوم نفسه لعدم الحديث عن "ورد"،
رغم أن فاضل قد منحه فرصة مثالية لذلك. تذكر كلمات
فاضل، واتفق معها في داخله...

"إن لم أصرّح لها عن مشاعري قريباً، ربما تتزوج، وأبقى
أنا وحيداً... أعيش مع الكتمان

شغل باله طيلة تلك الليلة ما دار بينه وبين فاضل، لدرجة أنه لم يغمض له جفن، واستقبل ضوء النهار وهو غارق في نفس القلق.

في اليوم التالي، تقابل مجددًا مع فاضل، وقد بدت ملامحه شاردة، والقلق والاستياء واضحا في عينيه. كان غارقًا في التفكير، يبحث عن طريقة يخبره بها بما لم يستطع قوله بالأمس.

لاحظ فاضل شروده، فسأله:

— ما بك؟ لماذا تبدو مستاءً هكذا؟ هل السبب هو تلك الفتاة التي أخبرتني عنها سابقاً؟ لم لا تفتح لي قلبك كعادتك؟ الحب يحتاج إلى شجاعة، وأنت...

لكن فهد لم يكن منصتاً؛ كان منشغلاً بجمع شتات شجاعته، وفجأة قطع حديث فاضل وقال دفعة واحدة، كأنما قذف بجمرات من صدره:

— أنا... أتمنى أن أتزوج من أختك ورد. لم أخبرها بذلك خوفاً من أن يؤثر ذلك على علاقتنا، ولم أقدر أن أخبرك أنت أيضاً خوفاً من ردّة فعلك.

قالها دون أن يلتقط أنفاسه، وكأن الهم ثقيل لدرجة أن
خروجه كان أقرب للانفجار.

عمّ صمت رهيب في المكان.

فاضل لم يرد، لا يزال يحاول استيعاب ما سمعه، بينما أخذ
فهد يلتقط أنفاسه، ثم أكمل بنبرة أكثر هدوءًا وراحة:

— أريد موافقتك كي أتقدّم لأختك.

ظل يتربص ردة فعل فاضل، الذي لم يتفوه بأي كلمة. ثم قطع
الصمت أخيرًا قائلاً:

* – أتعتل أنك طوال هذه الفترة كنت تخفي عني شيئاً كهذا؟*

رد فهد متوترًا: * – في الحقيقة... لا أعرف ما الذي جرى.
في هذا الموضوع بالذات شعرت أنني لست أنا. لم تنفعني
شجاعتي، وكأن قلبي جعل مني شخصاً آخر من مجرد نظرة
عين.*

ضحك فاضل وهو يقول:

* – صدق من قال: العشق يجعل من العقلاء مجانين.*

فهد، بترقب شديد:

* - لكنك لم تُعطني الموافقة بعد... *

رد فاضل بصرامة مفاجئة:

* - بالطبع لم أعطِكَ. *

توقّف قلب فهد للحظة، وتجمدت ملامحه حزناً، قبل أن
ينفجر فاضل ضاحكاً:

* - يا لك من غبي! أيعقل أن أرفض؟! *

حينها فقط بدأ فهد يستوعب أن الأمر كله لم يكن إلا مزحة
من فاضل، فتنفّس بارتياح، وقد ارتسمت على وجهه أول
ابتسامة صادقة منذ ليالٍ طويلة.

ابتسم مجاراةً له في مزاحه: "كدتَ توقف قلبي!"

فقال فاضل بجديّة وهو يتأمل حال فهد:

"أل هذه الدرجة تحبها؟"

لم يُجب فهد، واكتفى بالنظر إلى الأسفل واحمرار وجنتيه خجلاً.

فضربه فاضل ضربة خفيفة على كتفه مازحاً:

"كفاك يا فتى، لا يليق كل هذا الخجل إلا بالفتيات!"

ابتسم فهد، ثم قال متجاهلاً سؤال فاضل:

"خذ رأي أختك، وعد إليّ بالخبر، سأكون بانتظارك."

رد فاضل وهو على وشك الرحيل:

"لا تقلق، أنا متأكد أنها لن ترفض فتى بمواصفاتك."

رحل فاضل، وبقي فهد يفكر: تُرى، هل ستوافق ورد أم لا؟

...

عندما سأل فاضل أخته، كان ذلك السؤال بمثابة الفرج لها، وحدثاً كانت تتمنى وقوعه وتنتظره على أحرّ من الجمر.

فما إن أخبرها بما قاله فهد، حتى احمرّ خديها، وارتسمت ابتسامة خجولة على شفتيها، في حين لم تستطع رفع عينيها في وجه أخيها، ثم ركضت هاربة من نظراته المترقبة.

...

التقت ورد بفهد، فبوح كلُّ منهما للآخر بمشاعره، وبدأت تجهيزات زواجهما على الفور.

لم يكن هناك ما يعيق تلك الخطوة، نظرًا لمكانة فهد عند العائلة، كما أن بيعه لأغلب أحصنة محمود جعله قادرًا على تحمّل تكاليف الزواج.

جرت الأمور بسرعة، وتم زواجهما في فترة وجيزة.

وقبل عودة محمود بأيام، كانت جميع الأحصنة قد بيعت، فبدأ فهد يفكر في عمل مستقرّ بديل عن عمله المؤقت، لكنه لم يجد ما يناسبه، إلى أن عاد محمود من سفره.

كان محمود ممتنًا لما فعله فهد في غيابه، ولما حققه من ازدهار في عمله، فقال له:

"لا تتردد في طلبي إن احتجت شيئًا في المستقبل."

كانت عائلة ورد تعتمد على الزراعة، وكان محصولهم مزدهرًا، مما جعلهم من الميسورين.

فطلبوا من فهد أن ينضم إليهم في العمل، خاصةً بعد أن أصبح فردًا من العائلة.

في البداية، شعر فهد بالإحراج، وفكّر في رفض اقتراحهم، لكنه تراجع بينه وبين نفسه، مدركًا أنهم يخافون على مستقبل ابنتهم، وهذا حقهم الطبيعي. لذا، قرر أن يقبل عرضهم حتى يطمئنوا عليها، ريثما تتغير الأحوال نحو الأفضل.

انضم فهد إلى كل من فاضل وعبد القادر في العمل، إلى جانب الدور الهام الذي كانت تقوم به كل من حنان وورد وسهام في شؤون الزراعة.

كانت أمورهم المادية مستقرة، إلى أن مرّت عدة سنوات على زواج فهد وورد دون أن يرزقا بطفل، الأمر الذي أثار القلق والتوتر في العائلة.

ما كان من فهد إلا أن أكثر من الدعاء، وهو على يقين بأن الله لن يخيّب رجاءه. وبالفعل، وبعد مرور خمس سنوات على زواجهما، وبعد أن بدأ الجميع يفقد الأمل، جاء خبر حمل ورد ليعيد السعادة إلى قلوبهم من جديد، بعد أن هجرتهم لسنوات.

فرحوا كثيراً بسماع خبر الحمل، وتضاعفت فرحتهم أضعافاً
حين أنجبت ورد توأماً بفضل الله.

أحب الجميع أبناء فهد حباً بالغاً، ربما نتيجة لطول سنوات
الانتظار، وكان فهد ينوي تسميتهما على اسمي صديقه
السابق وتوأمه الذي لم ولن ينساه ما دام قلبه ينبض.

لكن كان لحنان وعبد القادر رأي آخر؛ فقد أرادا تسمية التوأم
باسم فاضل وتوأمه فياض، مما خلق توتراً بسيطاً.

لم يصرّح فهد برغبته احتراماً لهم، لكنه لم يستطع إخفاء
انزعاجه.

لاحظ فاضل ذلك، رغم أن فهد لم ينطق بحرف واحد. لكن صداقتهما كانت عميقة لدرجة أن كل منهما كان يقرأ ما في قلب الآخر بمجرد النظر.

فضل فاضل أن يؤجل سؤاله عن سبب الانزعاج إلى وقت لاحق...

عندما يكونان بمفردهما، ورغم قوة صداقة فهد وفاضل، إلا أن فهد لم يخبره يوماً بقصته الكاملة. لم تكن علاقتهما تتضمن إشارات استفهام حول ماضيه تجبره على ذلك، لذلك لم يخطر بباله أنه من الضروري إخبار أي أحد من العائلة بذلك.

لكن في ذلك اليوم، عندما انفرد مع صديقه، أصرّ فاضل عليه أن يخبره بسبب ملاحظته لانزعاجه. وبعد إلحاح، وافق فهد على مضض أن يروي له قصته الكاملة وسرّ اعتراضه على التسمية.

في البداية، صُدم فاضل مما سمع، ولم يُصدق أنه استطاع إخفاء أمر كهذا طوال هذه الفترة، لكن ما إن شرح له فهد موقفه، حتى تفهّمه بعد إعادة التفكير فيه لاحقاً.

ثم نقل فاضل القصة إلى حنان وعبد القادر نيابة عن فهد.

تفهمت حنان الأمر منذ البداية، أما عبد القادر فكان له رأي آخر، حيث عاتب فهد على كتمانها الأمر كل هذه السنوات، وعدم مصارحتهم حتى ذلك اليوم.

دار بينهما نقاش طويل، كان أبرز ما فيه اعتذار فهد عن خطئه ومحاولة إقناعهم، والتي نجحت بصعوبة، لينتهي التوتر الذي خيم على العائلة مؤخرًا.

صادف ذلك اقتراب موعد حفل التسمية، فلم يكن الوقت مناسبًا للخلافات، مما سهّل الأمر كثيرًا.

عندما عاد النقاش حول اختيار الأسماء، حاول الجميع الوصول إلى حلّ وسط يُرضي الطرفين.

في النهاية، تمّ الاتفاق على تسمية أحد التوأمين كما أراد فهد،
باسم صديقه "فريد"، والآخر كما رغبت عائلة ورد، باسم
خاله الراحل "فياض".

انتهى الأمر على هذا الحال، وكان الجميع راضيًا، ففرحوا
بتسميتهما.

وفي تمام عامهما الثالث، صادف هذا الحدث نهاية فصل
الزراعة. تم جمع معظم الحصاد وتخزينه في المنزل تمهيدًا
لبيعه، فقد كان اعتمادهم المادي الأساسي عليه.

لكن، وفي أحد الأيام، وقعت تلك الحادثة...

الحادثة التي غيّرت مجرى حياتهم، وأخذت بهم نحو منعطف
جديد تمامًا...

في تلك اللحظة رأوا حصاد عام كامل من العمل الشاق
يتحول إلى سراب، إذ التهمت النيران منزلهم لأسباب
مجهولة، ربما كانت بسبب لعب الأطفال أو ما شابه. تسالت
السنة اللهب إلى داخل المنزل، لتلتهم كل ما بداخله، ولم
يتمكنوا إلا بالكاد من النجاة بأنفسهم من ذلك اللهب
الغاضب، العطش لكل ما يحتويه ذلك المكان.

لم يتعرض أي منهم للأذى الجسدي، لكنهم وجدوا أنفسهم
فجأة على الحديدة، بكل ما تحمله الكلمة من معنى. بدأ القلق
والتوتر يخيّمان على أذهانهم، ووقفوا مكتوفي الأيدي، لا
يملكون أدنى فكرة عما يجب عليهم فعله بعد أن وقعت عليهم
تلك المصيبة كالصاعقة.

انتشرت أخبار الحريق في أرجاء القرية بسرعة، وبدأت المساعدات تنهال عليهم من كل اتجاه. وكان أكبر الداعمين في تلك المحنة هو محمود، الذي قرر أن يعيد لفهد بقية الأموال التي سبق أن أصر على تقاسمها معه. علاوة على ذلك، قدم اقتراحًا كان بمثابة شعاع أمل وسط ظلامهم.

قال محمود عارضًا مساعدته:

"في الحقيقة، أملك منزلًا في مدينة فرجهان، يمكنكم الإقامة فيه مؤقتًا ريثما تستقر أموركم. أنا على يقين أن فرجهان ستمنحكم الفرصة لاستئناف حياتكم، فهي وجهة كل من أراد أن يبدأ من جديد. أيًا كانت مهاراتهم، ستجدون لها مكانًا هناك." في البداية، قبل الاقتراح بالرفض، فقد كان في داخلهم شيء يمانع قبول تلك المساعدة، مبررين ذلك بأنهم لا يريدون أن يكونوا عبئًا على أحد. غير أن صوتًا آخر بداخلهم كان يحثهم على قبول ما هم في أمس الحاجة إليه.

وبعد إصرار وإلحاح من محمود، وافقوا على اقتراحه على مضض.

كان عبد القادر، بشكل خاص، مصرّاً على عدم هجر مسقط رأسه بسهولة، لكن قراره لم يلبث أن تلاشى أمام إلحاح الجميع الذين حاولوا إقناعه بأهمية هذه الخطوة.

وفي النهاية، تمّت الموافقة على ذلك الاقتراح، لتبدأ رحلتهم في درب جديد....

قررُوا أن يسافروا إلى مدينة "فرجهان"، كما قال محمود.

لم يكن تركهم لقريّة "سنابل" هيّناً عليهم، فمن الصعب أن تعيش أكثر من نصف عمرك في مكان احتوى أغلب ذكرياتك، التقيت فيه بأحبّ الناس إلى قلبك، ونسجت فيه علاقات متينة حتى مع أدق تفاصيله، ثم – وبدون سابق إنذار – تداهمك ظروف قاسية تضعك تحت ضغط يجبرك على ترك كل تلك الأشياء والأشخاص الذين منحوا قلبك معنى ودفناً.

هذا تماماً ما حدث مع تلك العائلة، فقد وُضعوا تحت ضغط كبير أجبرهم على ترك "سنابل"، وفتح صفحة جديدة في مدينة "فرجهان" التي لم يسبق لهم رؤيتها قط، وكل ما يعرفونه عنها هو ما قاله محمود:

إنها مدينة تعطي فرصة جديدة لمن فقد الأمل، وتلقب بـ"الأمل الدفين"، وهذا بالضبط ما كانوا بأمرّ الحاجة إليه.

مرت أيام قليلة وهم يجهزون للسفر، حاولوا خلالها قدر
الإمكان توديع كل زاوية في تلك القرية، ففي كل موطنٍ فيها
ذكرى خالدة لا تُنسى.

وانقضت تلك الأيام كرفّة جفن، ليهرول يوم الرحيل نحوهم،
فودّعوا أحبابهم في "سنابل"، وانطلقوا في رحلتهم نحو
"فرجهان".

كان فهد طوال الطريق يتساءل: ترى إلى أين سيأخذه هذا
المنعطف الجديد في حياته؟

فيما كانت بقية العائلة تتأمل: هل ستمنحهم هذه المدينة ما
منحته إياهم "سنابل"؟

فبعض الأماكن لا تمنحك المال فقط، بل تمنحك القلوب
والأمان والانتماء.

مرّ يوم كامل من الرحلة، حتى وصلوا بعد منتصف الليل، وقد أنهكهم التعب. لم يكن لديهم طاقة للحديث أو التخطيط، فغرق كل منهم في نوم عميق، حيث تغلب الإرهاق على التوتر.

كان اليوم التالي هو بداية دراسة خطواتهم الأولى للتأقلم مع ذلك المكان الجديد.

ومضى الصباح ببطء، استعاد فيه كل واحد نشاطه شيئاً فشيئاً بعد ليلة السفر المتعبة، ثم بدأ الاجتماع الذي جمعهم دون استثناء...

بدأ عبد القادر مستفتحاً ذلك الاجتماع بقوله:

"إن كنا بالفعل ننوي الاستقرار في هذا المكان، فلا بد أن نفكر بحكمة في كيفية صرف أموالنا."

فقال فاضل:

"إن أردنا استغلال الأموال التي جلبناها معنا، فعلى كلِّ منا أن يختار مشروعًا يناسبه ليبدأ في تدشينه على الفور.

بالنسبة لي أنا وأبي، فنحن منذ البداية نجزم أن اختصاصنا الوحيد هو ما له علاقة بالزراعة، حتى وإن كان مجالها نادرًا في المدينة، وسنحاول قدر المستطاع البحث عن عمل يناسب هذا الاختصاص.

وأيًا كانت الأرباح، فستُساهم في معيشتنا ولو بشكل بسيط."

حنان:

"أما كلُّ منِّي أنا وورد وسهام، فلطالما كنا مهتمات بالخياطة. سنحاول استئجار ورشة للخياطة ونتناوب عليها حتى لا نهمل المنزل، خاصة مع ضرورة تواجد من يعتني بفريد وفياض على الدوام. وبإذن الله، ربما نتمكن من فتح ورشتنا الخاصة لاحقًا."

طال صمت فهد طيلة الاجتماع، واكتفى بالإنصات، فكان لا بد من توجيه نظرات الاستفهام نحوه...

سأله الجميع إن كان يملك فكرة لمشروع يخصه هو الآخر، فأجاب قائلاً:

"أعتقد أن عملي مع محمود كان لا بأس به، فترويض الأحصنة أمر يمكنني إتقانه. سأدبر أموري مع أحدهم، إلى أن أتمكن من العمل في إصطبل خاص بي."

جرت الأمور على نحو ما خططوا له، وأضفى الحظ لمساته على أعمالهم ليساهم في نجاحها. مرت شهور منذ قدومهم إلى فرجهان، وكانت أمورهم المادية تسير على نحو ممتاز، مما دفع فهد إلى اقتراح التعايش مع تلك المدينة والتأقلم معها، فمسألة الاستقرار فيها لا تبدو أمراً مرفوضاً، خاصة بعد النظر في حاجة فريد وفياض للتعلم في وقت مبكر.

ثم عزز كلامه بقوله:

"أنا على ثقة بقدرة عبد القادر على تولي التكاليف، إضافة إلى أنني قابلت اليوم من يفتح لي الباب الذي لطالما انتظرته على مر شهور..."

لقد قابلت رجلاً أعجب بأسلوبي في التعامل مع الأحصنة، وعرض عليّ..."

فتح مشروعاً معه ليكون شراكة بينهما، ولأن الأحصنة كائن محبوب من قبل أغلب سكان المدينة، لا بد أن يكون ذلك المشروع ناجحاً بإذن الله. وافق الجميع على رأي فهد، مما دفعه لقبول العرض، وزادت ثقته بقراره تأييدهم لفكرة دراسة فريد وفياض. ازدهرت أعمالهم بسرعة فائقة، وتمكن كل منهم من إنشاء عمله الخاص كما كان يطمح إليه منذ البداية. حنان وورد وسهام تمكن من فتح ورشة لهن، وكان عملهن في الورشة ناجحاً، تزايد شهرته وتطوره يوماً بعد يوم. أما عن زراعة فاضل وعبد القادر فتطورت هي الأخرى.

مع وجود آلات حديثة ومصانع، وبالتعاون مع تلك المصانع، ازدهر عملهم وتراكمت الأموال عليهم. كما تعاون فهد مع الرجل المسمى صادق، الذي سبق وعرض عليه عقد شراكة، فنجح المشروع الذي اتفقا عليه في سرعة البرق. كان مشروعهما يشمل كل ما يتعلق بالأحصنة، سواء كان بيعهم أو إيجارهم أو حتى مجرد الاعتناء بهم وبصحتهم.

بعد ازدهار تلك الأعمال ونجاحها، حاولت العائلة دمج تلك الأعمال بغية توحيدها في إطار واحد، إلا أن تلك المحاولة باءت بالفشل؛ فقد كان لكل منهم اختصاصه الخاص ومجاله الذي يمكنه أن يبدع فيه. لكن ذلك لم يسبب أي نوع من القلق أو التوتر داخل العائلة، فقد كان كل منهم مقتنعًا بما بين يديه وفرحًا لنجاحه ونجاح غيره. وبعد أن تحسنت أمورهم إلى هذه الدرجة...

اشتروا منزلاً من أفخم وأكبر منازل المدينة ليعيشوا فيه
جميعاً تحت سقف واحد.

لكن بعد زواج فاضل من *رقية*، التي تعرّف عليها بعد
قدومه إلى *فرجهان*، وزواج *سهام* من *سامر* ابن
صادق، شريك *فهد*، بدأت الخلافات في وجهات النظر
داخل العائلة.

كانت سهام تنوي العيش مع زوجها في منزله، كما اعتادت
عليه منذ نشأتها، في حين استمر فهد في السكن مع زوجته
وأبنائه في منزل أهل زوجته.

وبعد إصرار سهام على ترك المنزل، رأى فهد أن من غير اللائق أن يستمر هو في العيش مع أهل زوجته تحت سقف واحد.

لكن *فاضل* لم يكن موافقًا على قرار أيّ منهما، فعارض رغبة سهام وفهد معًا، قائلاً:

"ليس من المنطقي أن تتركوني أنا وحنان وعبد القادر وحدنا. هذا سيؤدي إلى تفكك عائلي لن يستطيع أحد تحمّله، خصوصًا حنان وعبد القادر، فهما لا يستطيعان العيش دون بقية أفراد الأسرة."

ثم أضاف مماًزحًا لسهام وورد:

"ثم إنه من غير العدل أن تتركنا مسؤوليات المنزل على رقية وحدها دون تقديم أي مساعدة."

ورغم محاولات فاضل، استمر فهد وسهام في الإصرار على قراريهما، حتى بدأت صحة *حنان* في التدهور بسبب التوتر والخوف من تفكك العائلة وخسارتهم مجدداً.

ولحسن الحظ، لم يكن *سامر* متمسكاً بقراره، بل أبدى تفهماً لموقف سهام، كما ساعدت العلاقة الوثيقة بين *فهد* وشريكه *صادق* في تهدئة الأجواء. وافق *سامر* على أن يسكن مع سهام في منزل قريب من منزل عائلتها، وبذلك تم حل المشكلة دون تفريق العائلة.

انتقل صادق وابنه سامر إلى منزلٍ بالقرب من عائلة عبد القادر، ليكون سامر قريباً منهم، بحيث يتمكن من زيارة عائلته من وقت لآخر.

وبعد أن أنجبت ورد أختاً لفيّاض وفريد، قرر فهد أن يسميها "أمل"، تيمناً باسم ابنة صديقه الراحلة، والتي لطالما اعتبرها ابنته.

اشترى فهد منزلاً بجوارهم، وانتقل إليه، ليكون في تلك المنطقة ثلاثة منازل متجاورة لعائلة واحدة، وكأنها روابط تشابكت بها قلوب الجميع.

مرّت الأعوام وكَبُرَ فيّاض وفريد، وكان كلُّ منهما مهتماً بدراسة الطب.

لكن فريد كان يُفضل التخصص في *الطب التقليدي*، بينما رأى فيّاض أن *الطب الحديث* هو طريقه، أي على العكس تماماً من أخيه.

أكمل كلاهما دراسته، وأصبح لكل منهما منصب الطبيب،
لكن بنموذجه الخاص.

اقترح عليهما والدهما، فهد، فكرة دمج الطريقتين، فوافقا
بحماس، وقررا إعلان شراكة لتدشين عيادة متخصصة
تمزج بين أسلوب الطب الحديث والتقليدي.

أثارت الفكرة ضجة في الوسط الإعلامي، وذاع صيتهما
بسرعة بعد الإعلان عنها.

نُظّم حفل ضخم لتدشين العيادة، تخلله مؤتمر صحفي للإجابة
عن تساؤلات الإعلاميين.

وكانت العائلة مدعوة بالكامل: *عبد القادر، حنان، ورد،
سهام، سامر، صادق،* وحتى *أمل* الصغيرة.

كانت المناسبة لحظة فرح كبيرة جمعت العائلة تحت أنظار
الإعلام والجمهور، في مشهد ملهم لوحدة عائلة نُسجت
قصتها من الألم، وصنعت من الحلم واقعا.

يغمره الفخر بذلك التوأم، ثنائي ناجح من نوع خاص وبأسلوبٍ مميز. وكان أغلب ذلك الفخر متوطَّنًا في قلب فهد، الذي أنجبهما ورافقهما ليبلغا ما لم يحلم به قط.

بعد أن أنهى الإعلاميون تساؤلاتهم، أخبرهم فريد وفياض أن الفكرة كانت فكرة والدهما، لتسلَّط الأضواء عليه، ولإتاحة الفرصة له للحديث عن مدى فخره بأبنائه، وحرصهما على الاستماع إلى رأيه في عملهما.

وما إن توجَّهت الأنظار إليه، والجميع آذانٌ صاغية لما سيتفوه به، حتى مرَّ شريط حياته أمام عينيه.

تذكر كل ما مرّ به، والمنعطفات التي قادته - رغماً عنه -
إلى هذه اللحظة.

في بداية حديثه، أراد أن يعبر عن فخره بأبنائه، ثم انجذب
حديثه تدريجياً نحو نفسه، حين تذكر صديقه وما قاله في
لحظة احتضاره، وما تحقق من كلماته بالفعل.

فقال بعد أن تمعّن في الوجوه الحاضرة، وفي اقتحامهم
لحياته وتوطنهم في قلبه:

***"لقد كانت حياتي قبل التعرف على أهل زوجتي مختلفة
تماماً عما هي عليه الآن.

لطالما أخذت حياتي منعطفات لم أخترها، ومرّت عليّ
مواقف كنت أجزم أنها النهاية، وأنني لن أتجاوزها أبدًا، ولن
أتذوق طعم السعادة من بعدها.

لكن قدرتي كان يخبرني دائمًا بعكس ذلك، وكان الله ينعم عليّ
بفرحةٍ تنسيني مرارة كل حزن مضى.

خرجت من تلك التجارب بقناعة راسخة:

حتى وإن أحاط بك اليأس من كل جانب، واخترق قلبك
وتوطن داخله، فلا تدعه أبدًا يفقدك الأمل.

تأمل جيّدًا، تمعّن فيما حولك، فمن المؤكد أن هناك "أملًا
دفينًا" في مكانٍ ما قريبٍ منك،

كل ما تحتاجه هو إيمانٌ صادق، تتّخذ كشمعة تنير لك
الطريق إليه... "**

الأمل الدفين

في مملكةٍ حوّلت العدل إلى جريمة، والرحم إلى لعنة، وُلد
وليّ العهد ليكون امتدادًا لدماء الطغيان... لكن قلبه تمرد.

اختار أن يخالف العرش، ويخذل السلالة، ليمنح المسحوقين
بصيص نور، وسط ظلمة لا تعرف الرحمة.

حين تُقطع الرؤوس، وتُخنق الأرواح، وتُقتل الأحلام قبل أن
تولد — لا يبقى سوى "الأمل الدفين".

رحلة من القصر إلى المجهول، من الخيانة إلى التضحية،
من العزلة إلى الثورة...

فهل يكفي قلبٌ واحد ليُشعل وطنًا؟

رواية درامية إنسانية، تسرد كيف يولد النور من قلب
الحطام.

"و رب ظلام دامس يعقبه نور خفي"

جميع الحقوق محفوظة لمريم محمد المختار.

الأمل الدفين

و رب ظلام دامس يستدبره
نور خفي

بقلم مريم محمد المختار